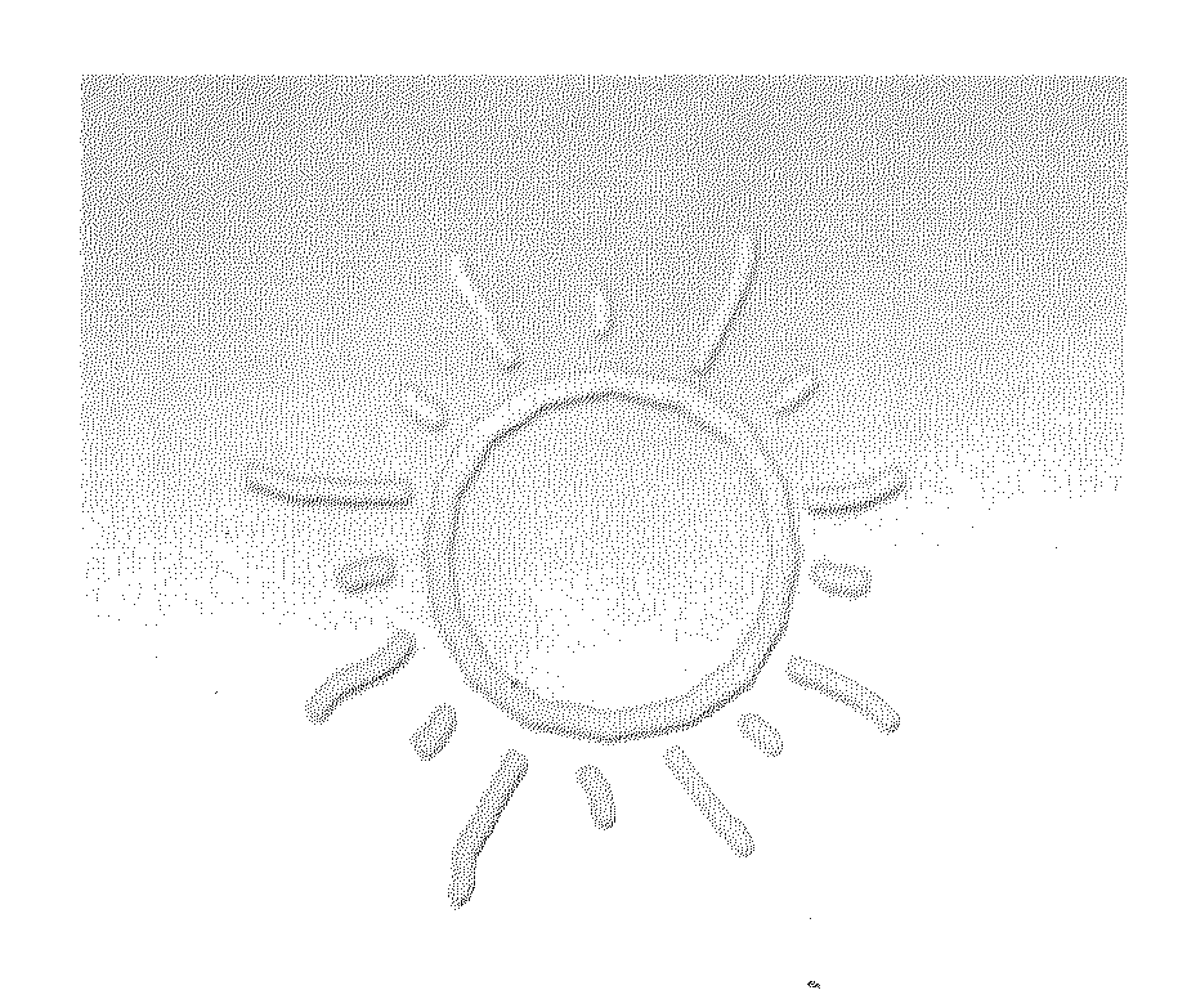
قراءات في كتاب الحب

بول تيليش

الوجود الجديد

ترجمة
مجاهد عبد المنعم مجاهد





مكتبة
دار الكلمة
LOGOS

الوجود الجديد

من الحب حتى الخلاص

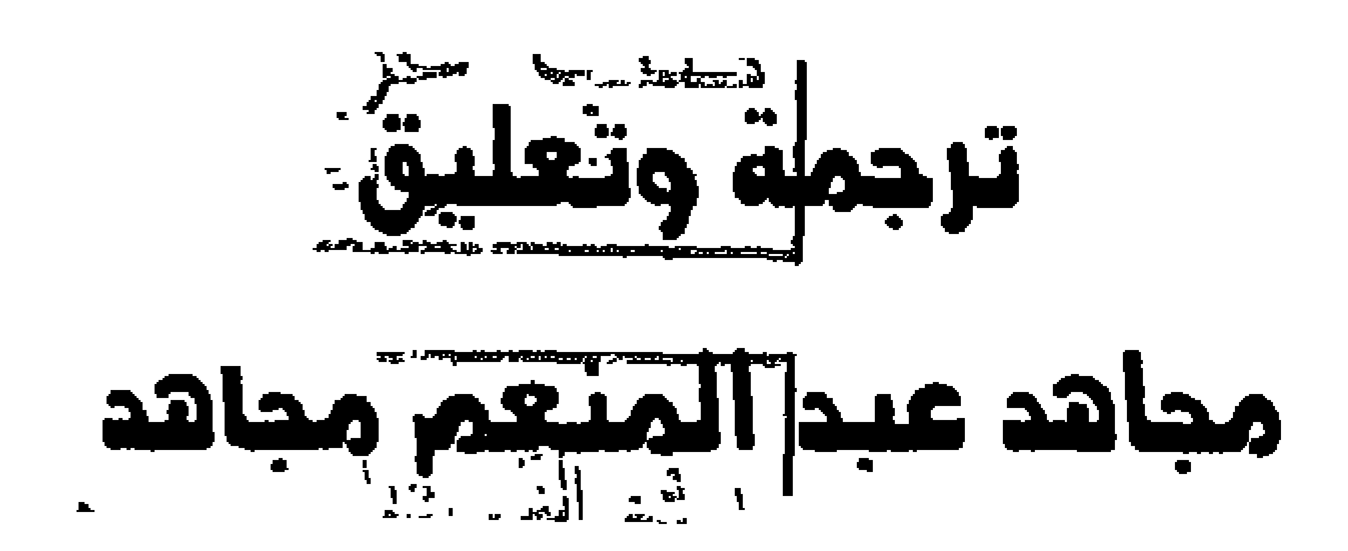
قراءات في كتاب الحب

[١]

بول تيليش

الوجود الجديد

من الحب حتى الخلاص



ترجمة وتعليق

مجاهد عبد المنعم مجاهد



الوجود الجديد
من الحب حتى الخلاص

ترجمة

مجاهد عبد المنعم مجاهد



القاهرة - مصر

4 شارع حجاج من فريد الأطرش- عين شمس الشرقية

ت / 4914276

www.elkalema.com

Info@elkalema.com

الجمع والتصميم الداخلي: مكتبة دار الكلمة

تصميم الغلاف: جوزيف يونس

رقم الإيداع : 19290 / 2002

ISBN :977- 6010 - 69 - 5

Published in 2003

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

The New Being

By

Paul Tillich

الصادر عام 1955

إهداء الترجمة العربية:

إلى الدكتور سعد عبد العزيز حباتر

تحية تقدير لجهوده

في إعلاء قيم الحق والخير والحرية

مجاهد عبد المنعم مجاهد

المحتويات

تصدير

يحتوي هذا الكتاب مواعظ ألقيت معظمها في الكليات والجامعات وخاصة في المعهد اللاهوتي المتحد بنيويورك وفي كلية كونكيتكت نيو لندن، كونكيتكت، منذ نشر المجلد الأول لمواعظي (زعزعة الأساسات) (١)

والعنوانان: (زعزعة الأساسات) و(الوجود الجديد) يظهران علاقة المشكلات الرئيسية في الكتاب الأول بالمشكلات الواردة في الكتاب الثاني. وإذا جاز لنا القول فإن (الوجود الجديد) هو إجابة على الأسئلة التي تطورت في (زعزعة الأساسات).

وأحب أن أعرب عن تشكراتي للآنسة ماري هيلنر التي أهديها هذا الكتاب والتي ساعدتني - كما ساعدتني في الكتاب الأول - على التخلص من رطاناتي الألمانية وأشكال النقص الأسلوبية الأخرى ووجهت إليّ النصح بالنسبة لتنظيم الكتاب بتمامه.

وأساساً فإن الاقتباسات من الإنجيل جاءت وفق الطبعة المعتمدة المنقحة التي كتبت عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٢ مع موافقة رقيقة من جانب صاحب الطبعة ألا وهو قسم التربية المسيحية من المجلس القومي لكنائس المسيح في الولايات المتحدة الأمريكية.

نيويورك، ١٩٥٥ **ب. ت.**

(١) صدرت الترجمة العربية لنا عن مكتبة دار الكلمة (٢٠٠٢) (المترجم).

القسم الأول

الوجود الجديد .. حُبًّا

(١)

"لقد غفِرَت خطاياها الكثيرة ..."

[36]وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِّيسِيِّ وَاتَّكَأَ. [37]وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ [38]وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ. [39]فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّيسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذَلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ: «لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيّاً لَعَلِمَ مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ». [40]فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا سِمْعَانُ عِنْدِي شَيْءٌ أَقُولُهُ لَكَ». فَقَالَ: «قُلْ يَا مُعَلِّمُ». [41]«كَانَ لِمُدَايِنٍ مَدْيُونَانِ. عَلَى الْوَاحِدِ خَمْسُ مِئَةِ دِينَارٍ وَعَلَى الآخَرِ خَمْسُونَ. [42]وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَا يُوفِيَانِ سَامَحَهُمَا جَمِيعاً. فَقُلْ: أَيُّهُمَا يَكُونُ أَكْثَرَ حُبّاً لَهُ؟» [43]فَأَجَابَ سِمْعَانُ: «أَظُنُّ الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَرِ». فَقَالَ لَهُ: «بِالصَّوَابِ حَكَمْتَ». [44]ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ لِسِمْعَانَ: «أَتَنْظُرُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ؟ إِنِّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ وَمَاءً لأَجْلِ رِجْلَيَّ لَمْ تُعْطِ. وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيَّ بِالدُّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. [45]قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ. [46]بِزَيْتٍ لَمْ تَدْهُنْ رَأْسِي وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ. [47]مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيراً. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً». (إنجيل لوقا ٧: ٣٦ - ٤٧)

إن القصة التي قرأناها مثل الحكاية المأثورة عن (الابن الضال) فريدة بالنسبة لإنجيل لوقا. ففي هذه القصة كما في الحكاية المأثورة فإن هناك إنسانة ما تعد مذنبة كبيرة من جانب الآخرين وكذلك من جانبها إنما تتعارض مع الناس المفروض فيهم أنهم أتقياء حقاً. في كلا الحالتين نجد أن يسوع هو في جانب الخاطئ ومن ثمّ فإنه يوجه إليه (هو) النقد بشكل غير مباشر من الحكاية المأثورة من جانب الإبن الأكبر التقي ويُوَجَّه إليه النقد مباشرة في قصتنا من جانب الفريسيّ الورع.

(٢) طائفة من ثلاث طوائف يهودية رئيسية تتميز بمراعاتها للشريعة الشفاهية. والفريسيون يتوجهون إلى الجماهير ويحافظون على النقاء والتطهر ويوسعون من نفوذهم في دوائر المعبد حيث الهيمنة للصديقيين وهؤلاء لا يؤمنون بالبعث ولا يؤمنون بخلود النفس على عكس الفريسيين الذين يؤمنون بهما. (المترجم)

ولا يجب أن نقلل من دلالة موقف يسوع هذا بأن نؤكد بعد كل شئ على أن الخطاة ليسوا مذنبين على هذا النحو كما أن الأتقياء ليسوا ورعين على نحو ما يحكمون على أنفسهم وعلى نحو ما يحكم عليهم الآخرون. ما من شئ مثل هذا وارد في القصة أو في الحكاية المأثورة. إن الخاطئات: خاطئة هي عاهرة والأخرى في صحبة العاهرات لا ينلن التسامح بالحجَجَ الأخلاقية التي يمكن أن تمحو حدة المطلب الأخلاقي. وهن لا ينلن التسامح بالتفسيرات الاجتماعية التي قد تمحو مسئوليتهن الشخصية، ولا بتحليل دوافعهن غير الشعورية التي ربما تمحو دلالة قراراتهن الواعية، ولا من خلال المأزق الكلي للإنسان الذي قد يمحو اثمهن الشخصي. إنهن يسمين خاطئات بكل بساطة ودون تحفظ. وهذا لا يعني أن يسوع وكتّاب العهد الجديد غير واعين بالعوامل السيكولوجية والاجتماعية التي تحدد الوجود الإنساني. إنهم على دراية تامة بالهيمنة الكلية والتي لا مهرب منها للخطيئة على هذا العالم والانقسامات الشيطانية في نفوس الناس التي تحدث التعاسة الروحية للحشود. غير أن وعيهم بهذه العوامل التي أصبحت حاسمة بالنسبة لوصفنا (نحن) لمأزق الإنسان لدرجة أنه لم يمنعهم من تسمية الخاطئات خاطئات. إن الفهم لا يحل محل الحُكم. إننا نفهم على نحو أكبر وأفضل عن العديد من الأجيال التي سبقتنا. لكن بصيرتنا المتزايدة بشكل هائل بظروف الوجود الإنساني لا يجب أن تحول بيننا وبين شجاعتنا بتسمية المخطئ مخطئاً. وفي القصة والحكاية المأثورة فإن الخطاة يسمون على نحو جدي خطاة.

وبالطريقة نفسها فإن الصالحين يسمون على نحو جدي الصالحين. ونحن سنغيب عن روح قصدنا إذا حاولنا أن نظهر أن الصالحين ليسوا صالحين حقاً. إن الابن الأكبر في الحكاية المأثورة تصرف على النحو المفروض أن يتصرف بمقتضاه. إنه لا يشعر بأنه قد ارتكب أي شئ خاطئ كما أن إياه لم يقل له مثل ذلك. إن تقواه ليست موضع تساؤل - ولا تقوى سمعان الفريسيّ. إن نقص الحب تجاه يسوع لا ينال اللوم كنقص في التقوى، بل إنه مستمد من واقعة أن القليل قد أعطي له للغفران.

مثل هذه التقوى ليس من السهل الحصول عليها. إن الكثير من ضبط النفس والنظام الصارم والمراقبة الذاتية للنفس أمور نحن محتاجون إليها. لهذا لا ينبغي أن نستبعد الصالحين. وفي وجهة النظر المسيحية التقليدية نجد أن الفريسيين قد أصبحوا ممثلين لكل شئ شرير، ولكنهم كانوا في زمنهم الأتقياء والغيورين من الناحية الأخلاقية. وإن صراعهم مع يسوع لم يكن بكل بساطة صراعاً بين الصواب والخطأ، لقد كان - قبل كل شئ - صراعاً بين تراث قديم مقدس وحقيقة جديدة كانت تنفذ فيه وتحرمه من دلالته القصوى. لم يكن الأمر مجرد صراع - لقد كان أيضاً صراعاً تراجيدياً يفوق الصراع التراجيدي بين المسيحية واليهودية في كل الأجيال التالية بما في ذلك جيلنا. وإن الفريسيين - وهذا لا يجب أن ننساه - هم حراس شريعة الرب في عصرهم.

ويمكن مقارنة الفريسيين بالجماعات الأخرى من الأتقياء والصالحين. ويمكننا أن نقارنهم - على سبيل المثال - بجماعة لعبت دوراً هائلاً في تاريخ هذا القطر ألا وهم (الأطهار). والاسم نفسه، مثل اسم الفريسيين، يدل على انفصال عن غير المتطهرين في العالم. والأطهار يمكنهم على وجه اليقين أن يحكموا على وجهة نظر يسوع تجاه العاهرة على نحو ما نظر الفريسي سمعان. ولا يجب أن نندد بهم من جراء هذا الحكم ولا يجب أن نشوه صورتهم في حديثنا الفضفاض عنهم. إنهم مثل الفريسيين كانوا حراس شريعة الرب في عصرهم.

وماذا بشأن عصرنا؟ لقد قيل - وليس بدون تبرير - أن الكنائس البروتستنتانية قد أصبحت كنائس الطبقة الوسطى بسبب الطريقة التي يفسر بها أعضاؤها المسيحية وخاصة بالمثل بشكل نظري ومثل هذا النقد يشير إلى تمسكهم الفعال بكنائسهم، يشير إلى أخلاقياتهم الحسنة التأسيس، يشير إلى أعمالهم الخيرية. إنهم اتقياء - وكانوا سمعان هكذا من جانب يسوع. ومن المؤكد أنهم كانوا سينضمون إلى سمعان الفريسي والأطهار في نقد وجهة نظر يسوع تجاه المرأة الواردة في قصتنا. ومرة أخرى أقول علينا ألا ندينهم بسبب هذا. إنهم يتخذون التزاماتهم الدينية والخلقية مأخذاً جاداً. وهم - مثل الفريسيين والأطهار

- هم حرّاس شريعة الرب في عصرنا.

إن الخطاة يُسَمَّوْن على نحو جدّي خطاه، والأتقياء يُسَمَّوْن على نحو جدي الأتقياء. وإذا رأينا هذا وحده بوضوح فإنه يمكن فهم عمق وجهة نظر يسوع وقوتها الثورية. لقد آزر الخاطئة ضد التقيّ بالرغم من أنه لا يشك في صدق الشريعة والتي يحرسها الأتقياء. هنا نقترب من سر هو سر الرسالة الكنسية نفسها، في عمقها الحافل بالمفارقة أو التناقض الظاهري وقوتها التي تزلزل وتحرر. وكل ما نأمله هو أن نلمح هذا في محاولة تفسير قصتنا.

لقد صدمت سمعان الفريسي وجهةُ نظر يسوع تجاه العاهرة. ولقد تلقى رداً مفاده أن الخطاة لديهم حب أكبر من الأتقياء نظراً لأنهم مُنِحوا المزيد من المغفرة. (ليس) حب المرأة هو الذي حمل إليها الغفران، بل الغفران الذي نالته هو الذي خلق حبها. وهي بحبها قد أظهرت أن الكثير قد غُفر لها، بينما نقص الحب لدى الفريسي أظهر أن القليل هو الذي قد غُفر له.

إن يسوع لم يغفر للمرأة، بل إنه (هو) قد أعلن أنه قد غُفر لها (بالفعل). إن حالتها الذهنية، وما لديها من وجد الحب قد أظهرا شيئاً حدث لها. وإن شيئاً أعظم يمكن أن يحدث لكائن بشري عما قد غُفر له. إن الغفران يعني التصالح رغم الاغتراب [٣]، إنه يعني إعادة الوحدة بالرغم من العداوة، إنه يعني تقبل أولئك الذين هم غير مقبولين، وهو يعني تقبل أولئك الذين هم منبوذون.

إن الغفران أمر غير مشروط وإلا فإنه لا يكون غفراناً على الإطلاق. إن الغفران له طابع (بالرغم من)، غير أن الأتقياء يعطونه طابع (لأنّه). وعلى أي حال فإن الخطاة لا يستطيعون أن يفعلوا هذا. إنهم لا يستطيعون أن يحولوا ما هو إلهي في (بالرغم من) إلى ما هو إنساني في (لأنّه).

(٣) يستخدم بول تيليش كلمة estrangement بمعنى alienation بينما هناك تفرقة أصلاً بين الكلمة الأولى وهي تعني الغربة سواء في المكان أو في النفس بينما الثانية هي الاغتراب وهي تعني نشوء انفصال وفقدان للأنا (المترجم).

فلو كان الغفران مشروطاً، مشروطاً من جانب الإنسان، فلن يكون هناك أي مخلوق مقبولاً ولن يكون هناك أي مخلوق يتقبله. ونحن نعرف أن هذا هو حالنا وموقفنا، ولكننا نمقت أن نواجه هذا. إنه شئ عظيم جداً كهبة وهو وضاعة شديدة كحكم. إننا نريد أن ننسب شيئاً، ولو كنا نعرف أننا لا نستطيع أن نساهم بأي شئ إيجابي، إذن فإننا نحاول على الأقل أن نساهم بشئ سلبي: ألا وهم أن الاتهام - الذاتي والنبذ - الذاتي. ثم إننا نقرأ قصتنا والحكاية المأثورة عن (الابن الضال) كما لو كانتا تقولان: هؤلاء الخطاة قد غُفر لهم (لأنهم) أذلوا أنفسهم واعترفوا بأنهم غير مقبولين، ولأنهم عانوا من جراء مأزقهم الخاطئ أصبحوا مستحقين المغفرة. لكن هذه القراءة للقصة مضللة، بل هي قصة خطرة. فإذا كانت هذه هي الطريقة لتصالحنا مع (الله) فإنه يجب علينا أن نوجد في أنفسنا شعوراً بعدم الجدارة أو الاستحقاق، ألم النبذ الذاتي، القلق واليأس من الإثم. وهناك العديد من المسيحيين يحاولون هذا لكي يظهروا (الله) ويظهروا أنفسهم أنهم يستحقون التقبل. إنهم يؤدون عملاً انفعالياً من العقاب الذاتي بعد أن أدركوا أن الأعمال الخيرية الأخرى لا تساعدهم. غير أن الأعمال الانفعالية لا تساعد كذلك. إن المغفرة من (الله) مستقلة عن أي شئ نفعله حتى ولو كان اتهام الذات أو اتضاع الذات وذلتها. ولو كان الأمر ليس كذلك فكيف يتأتى لنا أن نتأكد أصلاً أن نبذنا الذاتي جاد لدرجة أنه يستحق المغفرة؟ إن المغفرة تخلق الندم - وهذا بيّن في قصتنا، وهذه هي تجربة أولئك الذين قد غُفر لهم.

إن المرأة في منزل سمعان جاءت إلى يسوع لأنه (كان) قد غُفر لها. وإذا نحن عرفنا هذا فإنه يجب علينا - بشكل يقيني - أن نكتشف أن الأمر كان أمر خليط من الدوافع - الرغبة الروحية وكذلك الانجذاب الطبيعي، قوة النبي وكذلك تأثر الشخصية الإنسانية. وإن قصتنا تحلل المرأة سيكولوجياً كما أنها لا تنكر الدوافع الإنسانية التي يمكن تحليلها نفسياً. إن الدوافع الإنسانية دائماً ملتبسة، لكنها لا تتطلب أن تصبح غير ملتبسة قبل أن يُعطى الغفران. ولو كان هذا مطلوباً فإنه ما كان يحدث الغفران. وإن وصف سلوك المرأة يظهر بجلاء التباسات دوافعها. ومع

هذا فإنها قد قبِلَت (بالفعل).

لا يوجد أي شرط للغفران. لكن الغفران لا يمكن أن يتأتىّ لنا إن لم نسْعَ من أجله ونتلقاه. إن الغفران تلبية، إنه التلبية الإلهية، تلبية للتساؤل الكامن في وجودنا. والتلبية أو الرد على التساؤل هو لا يكون رداً إلا بالنسبة لمن يتساءل، لمن هو على وعي بالتساؤل. وهذا الوعي لا يمكن اصطناعه. قد يكون في موضع خفي في نفوسنا، وقد غطته طبقات عديدة من التقوى أو الصوابية. وقد يصل إلى وعينا في لحظات معينة. أو يوماً بعد يوم - قد يملأ حياتنا الواعية وكذلك أعماقها اللاشعورية ويدفعنا إلى السؤال الذي يكون الغفران رداً عليه.

وكلمة (غفران) في عقول الكثيرين من الناس لها دلالات تتناقض تناقضاً تاماً مع الطريقة التي تعامل بها يسوع مع المرأة الواردة في قصتنا. ولقد تساءل اللاهوتيون عما إذا كان الإنسان قادراً على أن يكون لديه حب (لله)، لقد أحلوا الحب محل الطاعة. لكن قصتنا تدحضهم وتظهر تفاهتهم. إنهم يعملون لاهوتاً للأتقياء، وليس لاهوتاً للخطاة. ومن يُغفر له إنما يعرف ما المقصود بأن يحب الإنسان (الله).

وإن من يحب (الله) هو قادر أيضاً على تقبل الحياة وأن يحب، وليس هذا مساوياً لأن نحب (الله). بالنسبة لعديد من الأتقياء في كل الأجيال نجد أن محبتنا (لله) هي الجانب الآخر لكراهية الحياة. ويوجد الكثير من العداوة للحياة في داخلنا جميعاً، حتى أولئك الذين استسلموا بالكامل للحياة. وإن عداوتنا للحياة تتجلى في السخرية والاشمئزاز، في المرارة والاتهامات المتواصلة ضد الحياة. إننا نشعر بأننا منبوذون من جانب الحياة، وليس كثيراً بسبب حلكتها وتهديداتها وأشكال رعبها الموضوعة، ولكن بسبب اغترابنا عن قوتها ومعناها. وإن مَن يتوحد ثانية مع (الله)، فإنه (الأساس) الإبداعي للحياة، أو قوة الحياة في كل شئ حيّ يتوحد ثانية مع الحياة. إنه يشعر بأن الحياة قد تقبلته وأنه يستطيع أن يحبها. إنه يفهم أن الحب الأعظم يكون مع الاغتراب الأكبر الذي يقهره الحب. وبلغة استعارية أحب أن أقول لأولئك الذين يشعرون بعمق بعداوة تجاه الحياة: إن (الحياة) تتقبلكم، إن الحياة تحبكم

باعتباركم جزءاً منفصلاً عن نفسها، إن الحياة تريد أن تعاود اتحادها مع ذاتها حتى عندما يبدو أنها تدمركم.

وهناك قطاع في الحياة هو الأقرب إلينا عن أي شئ آخر وغالباً هو أكبر شئ مغترب عنا.. البشر الآخرون. إننا نعرف جميعاً مناطق النفس الإنسانية حيث تبدو الأشياء على نحو مختلف عن الشكل الذي تتبدى في سطحها الأريحيّ. وفي هذه المناطق نستطيع أن نجد العداوات الخفية ضد أولئك الذين نحن معهم في حالة حب. إننا نستطيع أن نجد الحسد والشك القاتل عما إذا كنا مقبولين حقاً في نظر هذه المناطق من النفس. وهذه العداوة والقلق من جراء أننا منبوذون من جانب أولئك الذين هم أقرب إلينا يمكن أن تتخفى هذه العداوة وراء أشكال مختلفة للحب: الصداقة، الحب الجنسي، الحب بين الزوجين والحب الأسري. ولكن إذا ما نحن عايشنا التقبل الأقصى فإن هذا القلق يجري قهره وإن لم يجر محوه تماماً. إننا نستطيع أن نحب بدون أن نكون متأكدين من الحب الملبيّ للطرف الآخر. وذلك أننا نعرف أنه هو نفسه مشتاق لتقبلنا بمثل ما أننا مشتاقون لتقبله، وأننا في ضوء التقبل الأقصى نكون قد عاودنا وحدتنا.

وإن مَن يُقْبَل على نحو أقصى يمكن أيضاً أن يَتَقَبلَّ نفسه. وذلك أن المغفرة والتقبل هما شئ واحد وكل منهما هو عين الآخر. فما مِن أحد يستطيع أن يتقبل نفسه وهو لا يشعر أنه مقبول من قوة التقبل التي هي أعظم قيمة، أعظم من أصدقائه ومستشاريه ومساعديه النفسيين. قد يشير هؤلاء إلى قوة التقبل وإن وظيفة الكاهن هي أن يفعل هذا. لكنه هو والآخرون هم في حاجة أيضاً لقوة التقبل التي هي أكبر منهم. والمرأة في قصتنا ما كان لها على الإطلاق أن تقهر الاشمئزاز من وجودها بدون أن تجد هذه القوة وهي تعمل عملها من خلال يسوع والذي قال لها بكل قوة: "لقد غُفر لك" ومن ثم عايشت على الأقل في لحظة (واحدة) من الوجود من حياتها - عايشت القوة التي أعادت توحيدها مع نفسها وأعطتها إمكانية حب حتى مصيرها هي الخاص.

لقد حدث لها هذا في لحظة عظيمة واحدة. وفي هذه اللحظة لم تكن

استثناء، فإن التجارب الروحية الحاسمة لها طابع النفاذ، ففي وسط معاناتنا العقيمة لنجعل لحياتنا قيمة، في يأسنا من جراء الفشل الذي لا مهرب منه لهذه المحاولات يتملكنا فجأة اليقين بأنه قد غُفر لنا وأن نار الحب شرعت تشتعل. وهذه هي أعظم التجارب التي يمكن أن تكون للمرء. قد لا تحدث كثيراً، ولكن عندما تحدث بالفعل فإنها تقرر وتبدّل كل شئ.

والآن دعونا ننظر مرة أخرى في أولئك الذين وصفناهم بأنهم الأتقياء. إنهم أتقياء حقاً، ولما كان القليل قد غُفر لهم فإنهم يحبون قليلاً. وهذه هي عدم تقواهم. إن الأمر ليس ملقى على المستوى الخلقي، بمثل ما أن عدم تقوى أيوب لا يكمن على المستوى الخلقي حيث أن أصدقاءه بحثوا عن عدم التقوى عبثاً. إن الأمر يكمن على مستوى المواجهة مع الحقيقة القصوى، مع (الله) الذي يدافع عن نفسه (هو) ضد تهجمات أيوب وعدم تقواه القصوى [٤]. إن تقوى الأتقياء صعب وهو يقين ذاتي. إنهم يريدون أيضاً المغفرة، لكنهم يؤمنون أنهم لا يحتاجون الكثير منها. ومن ثم فإن أعمالهم التقية تتدفأ بحب قليل جداً. إنهم لم يستطيعوا أن يساعدوا المرأة في قصتنا، وهم لا يستطيعون أن يساعدونا، حتى لو أننا أعجبنا بهم. لماذا يشيح الأطفال عن آبائهم التقاة ويشيح الأزواج عن زوجاتهم المتقيات والعكس بالعكس؟ لماذا يشيح المسيحيون عن رعاتهم الأتقياء؟ لماذا يشيح الناس عن جيرانهم الأتقياء؟ لماذا يشيح الكثيرون عن المسيحية الحافلة بالتقوى وعن يسوع الذي صورته وعن (الله) الذي نتحدث عنه؟ لماذا يلتفتون لأولئك الذين لا يعدون من الأتقياء؟ وغالباً، ومؤكداً، أن الأمر يرجع إلى أنهم يريدون أن يهربوا من الحكم الموقّع عليهم. ولكن في الأغلب إن الأمر يرجع إلى

(٤) هذا عكس ما جاء في القرآن الكريم حيث يوصف أيوب بالصبر لا بالتهجم. يقول الله العلي العظيم في قرآنه الكريم: "واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنيّ مسّني الشيطان بنصيب وعذاب (٤١) اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب (٤٢) ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب (٤٣) وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد أنه أوّاب (٤٤) (سورة ص) (المترجم).

أنهم يبحثون عن حب مغروس في الغفران، وهذا الحب لا يستطيع أن يمنحه التقاه. وكثير من أولئك الذين يلتفتون إليهم لا يستطيعون أن يقدموا الغفران بالمثل. ولقد أعطى يسوع الحب للمرأة غير المقبولة بالمرة. والكنيسة تستطيع أن تكون كنيسة (المسيح) على نحو أكبر عما هي عليه الآن إذا فعلت بالمثل، إذا انضمت ليسوع وليس لسمعان في مواجهتهما مع الذين يُحَكم عليهم بحق أنهم غير مقبولين. إن كل واحد منا يأمل في التقوى سيكون مسيحياً على نحو أفضل إذا ما مُنِح المزيد من الغفران، إذا أحب أكثر وإذا قاوم أفضل الإغراء بطرح نفسه على أنه مقبول عند (الله) بفضل تقواه.

(٢)

الوجود الجديد

"١٥لأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئاً وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ.

(رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٦: ١٥)

إنني إذا ما سئلت أن ألخص الرسالة المسيحية لعصرنا في كلمتين، فإنني لابد أن أقول مع بولس الرسول: إنها رسالة (خلق جديد). لقد قرأنا شيئاً عن الخلق الجديد في الرسالة الثانية لبولس إلى اهل كورنثوس. ودعوني أكرر جملة من جمله بكلمات ليست هي الترجمة الدقيقة: "لو أي أمرءٍ ما يكون في وحدة مع (المسيح) فإنه يكون وجوداً جديداً، إن الحالة القديمة للأشياء تكون قد ولّت، إن هناك حالة جديدة للأشياء" .. إن المسيحية هي رسالة (الخلق الجديد)، (الوجود الجديد)، (الواقع الجديد) الذي قد ظهر مع ظهور يسوع الذي بفضل هذا السبب ولهذا السبب وحده يُسَمَّى (المسيح) إن المسيح، المختار والمصطفى (هو) مَن يؤتي الوجود الجديد للأشياء.

إننا جميعاً نعيش في الحالة القديمة للأشياء، والسؤال الذي يطرحه النص الذي أوردناه هو ما إذا كنا (أيضاً) نشارك في الحالة الجديدة للأشياء. إننا ننتمي (للخلق القديم) والمطلب الذي أُلقي على كاهلنا من جانب المسيحية هو أننا (أيضاً) نشارك في (الخلق الجديد). لقد عرفنا أنفسنا في وجودنا القديم، وسوف نسأل أنفسنا في هذه الساعة ما إذا كنا أيضاً قد جربنا شيئاً من (الوجود الجديد) داخل أنفسنا.

فما هو هذا (الوجود الجديد)؟ لقد أجاب بولس أولاً بقوله ما هو الذي

(٥) هكذا جاءت الترجمة العربية للعهد الجديد لكننا سنضع مقابل كلمة creation الخلق لا الخليقة مستندين في هذا للنص القرآني العظيم "ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد" (إبراهيم/ ١٩) (المترجم).

(ليس) بالوجود الجديد. إنه يقول إنه ليس الختان كما أنه ليس العزلة. وبالنسبة لبولس وبالنسبة لقراء رسالته هذا يعني شيئاً محدداً جداً. إنه يعني أنه لا يهم أن يكون الإنسان يهودياً أو وثنياً هو الأمر المهم للغاية، إن ما يهم هو شئ واحد وحسب ألا وهو الوحدة معه (هو) ذلك الذي فيه يتواجد (الواقع الجديد). الختان أو العزلة - ماذا يعني هذا بالنسبة لنا (نحن)؟ إنه يمكن أن يعني أيضاً شيئاً محدداً جداً، لكنه في الوقت نفسه هو شئ كلِّيٌّ للغاية. إنه يعني أنه ما من دين على هذا النحو يطرح (الوجود الجديد). إن الختان هو طقس شعائري ديني يراعيه اليهود، والأضحيات هي طقوس شعائرية دينية يتَّبعها الوثنيون، والتعميد هو طقس ديني يراعيه المسيحيون. وكل هذه الطقوس لا تهم - الذي يهم وحده هو (خلق جديد). ولما كانت هذه الطقوس بكلمات بولس تدل على الديانة كلها التي تنتمي إليها فإننا نستطيع أن نقول .. ما من دين إلا وهو يهتم بحالة جديدة للأشياء. دعونا نفكر في هذا التأكيد اللافت للنظر عند بولس. إن ما يقوله أولاً هو أن المسيحية هي أكبر من أن تكون ديناً، إنها رسالة (خلق جديد).

إن المسيحية كدين لا تهم - إنها أشبه بالختان أو أشبه بالعزلة: لا أكثر ولا أقل. فهل نحن قادرون حتى على تصور النتائج للبيان الرسولي عن حالتنا؟ إن المسيحية في العصر الراهن يمكن أن تدل على كل شئ يسمى ديناً، إنها عزلة تدل على كل شئ يُسمى دنيوياً، ولكن بهذا تنطرح مطالب شبه دينية. وهناك أديان وديانات أخرى عظيمة بجانب المسيحية هي الهندوسية والبوذية والإسلام وبقايا اليهودية الكلاسيكية، إن هذه الديانات لها أساطيرها [٦] وطقوسها الدينية - لها إذا جاز لنا القول "ختانها" - تعطي كل منها تمايزها. وهناك الحركات الدنيوية: الفاشية والشيوعية والنزعة الإنسانية الدنيوية والمثالية الأخلاقية. وهي تحاول أن تتجنب الأساطير والطقوس الدينية، وإذا جاز لنا القول تمثل العزلة. ومع هذا فإنها تزعم أيضاً أنها تقول بالحقيقة القصوى وتتطلب

---

(٦) فيما عدا الإسلام فلا توجد في الدين الإسلامي أي أسطورة والديانات الأخرى مثل البوذية هي الحافلة بالأساطير (المترجم).

تكريساً كاملاً. فكيف ستواجهها المسيحية؟ هل ستقول لهم المسيحية: هَلُمَّ: تعالوا إلينا، إننا أفضل دين، إن أي نوع من ختاننا أو عزلتنا أغلى مما عندكم؟ هل ستثني على المسيحية التي هي طريقتنا في الحياة الدينية والدنيوية على السواء؟ هل سنجعل من الرسالة المسيحية قصة ناجحة ونقول لهم مثل الدعاة: حاولوها معنا، وسوف تتبينون كم هي المسيحية هامة لكل مخلوق؟ إن بعض المبشرين وبعض الكهنة وبعضاً من الناس العاديين المسيحيين يستخدمون هذه الطرق والمناهج. إنهم يُظهرون سوء فهم للمسيحية. إن الرسولي الذي هو مبشر وكاهن وإنسان عادي يقولون جميعاً معاً شيئاً مختلفاً. إنه يقول: لا يهم دين بعينه لا ديننا ولا دينكم. لكني أريد أن أقول لكم شيئاً قد حدث مما يهم، شيئاً يحكم عليكم ويحكم عليَّ، دينكم وديني. لقد حدث (خلق جديد)، ظهر (وجود جديد)، ونحن جميعاً مطالبون بأن شارك فيه. ومن ثم يجب أن نقول للوثنيين ولليهود أينما نلتقي بهم: لا تقارنوا بين دينكم وديننا، لا تقارنوا بين طقوسكم وطقوسنا، لا تقارنوا بين أنبيائكم ونبينا [٧] لا تقارنوا بين كهنتنا وكهنتكم، لا تقارنوا بين الأتقياء من بينكم والأتقياء من بيننا. كل هذا لا يجدي. وفوق كل شئ لا تعتقدوا أننا نود أن تهتدوا فترتدّوا إلى المسيحية الإنجليزية أو الأمريكية، إلى ديانة العالم الغربي. إننا لا نريد لكم أن تهتدوا وترتدوا إلينا، ولا حتى لأفضل مَن فينا. إن هذا لا يجدي. كل ما نريده وحسب هو أن نبين لهم شيئاً قد رأيناه ونقول لكم شيئاً قد سمعناه: إنه وسط الخلق القديم هناك (خلق جديد)، وهذا (الخلق الجديد) قد تجلى في يسوع الذي يسمى (المسيح).

وعندما نلتقي بالفاشيين والشيوعيين والإنسانيين العلميين والمثاليين الأخلاقيين علينا أن نقول لهم: لا تتباهوا كثيراً جداً أنه ليست لكم أي طقوس وأساطير وأنكم متحررون من الخرافات وأنكم عقلانيون كاملون بدون ختان في كل معنى. وفي المقام الأول إن لكم أيضاً طقوسكم وأساطيركم، وجانب من الختان، وهي هامة للغاية بالنسبة لكم.

(٧) النص يقول أنبياء لكنني جعلت الترجمة مفردة لأنه مسيح واحد هو عيسى عليه السلام الذي بشر بعبادة الله الواحد الأحد والذي هو محبة وبالنسبة لليهود كان لهم عدة أنبياء (المترجم).

ولكن لو كنتم أحراراً على نحو كامل منها فلن يكون هناك موضع لأن تشيروا إلى عزلتكم. إن هذا لا يجدي. لا تظنوا أننا نريد أن نحولكم عن حالتكم الدنيوية إلى حالة دينية، وأننا نريد أن نجعلكم متدينين وأعضاء في دين سامٍ للغاية، ألا وهو المسيحية وكل تعين عظيم للغاية فيها ألا وهو عقيدتنا فهذا لن يجدي. كل ما نريده وحسب أن ننقل لكم تجربة عايشناها هنا وهناك في العالم والآن وآنذاك في أنفسنا هي (الخلق الجديد) وهو عادة خفيّ، ولكن أحياناً يكون جلياً ومن المؤكد أنه قد تجلى في (يسوع) الذي يسمى (المسيح).

هذه هي الطريقة التي يجب أن نتكلم بها لكل أولئك الذين هم خارج العالم المسيحي، سواء كانوا متدينين أم دنيويين. ولا يجب أن نقلق جداً على الدين المسيحي، لا يجب أن نقلق على حالة الكنائس، لا يجب أن نقلق على الانتماء العقائدي والعقائد، لايجب أن نقلق على المؤسسات والقسس وعلى المواعظ والقربان أو السر المقدس. هذا هو الختان، والنقص فيه ألا وهو الاصطباغ الدنيوي المنتشر اليوم في جميع أنحاء المعمورة هو العزلة. كلاهما لا شئ، كلاهما بلا أي أهمية فيما لو سُئل السؤال الأكبر، سؤال (الواقع الجديد). (هذا) السؤال - على كل حال - له أهمية ممتدة. وعلينا أن نقلق كل القلق عليه عن اي شئ آخر عداه بين السماء والأرض. و(الخلق الجديد) - هذا هو اهتمامنا الأعظم، يجب أن يكون هذا عاطفتنا الممتدة - العاطفة الممتدة في كل كائن بشري. هذا هو ما يهم، هذا وحده ما يهم بشكل أقصى. وكل شئ عداه بالمقارنة به حتى لو كانت الديانة أو عدم الديانة، حتى لو كانت المسيحية أو غير المسيحية تهم على نحو قليل جداً - وهي لا شئ على نحو أقصى.

والآن دعوني أَزْهُ للحظة بالنسبة لحقيقة هي أننا مسيحيون ودعونا نصبح أغبياء بالزهو كما أسمى بولس نفسه عندما شرع في الزهو. إن عظمة المسيحية قائمة في أنها تستطيع أن ترى كم هي صغيرة. إن أهمية كون الإنسان مسيحياً هي أننا نستطيع أن نتقبل بصيرة أن هذا ليست له أي أهمية. إن القوة الروحية للدين هي أن مَن هو متدين يستطيع بلا خوف أن

ينظر إلى عبث الديانة. إن الثمرة الناضجة للفهم المسيحي لفهم المسيحية على هذا النحو ليست مجدية. إن هذا هو زهو ولكنه ليس زهواً شخصياً، بل زهو متعلق بالمسيحية. إذا كان هناك زهو فهو مسألة سخيفة. ولكن الزهو بأنه لا يوجد شئ نزهو به هو الحكمة والنضج. التملك مساوٍ للاتملك - هذه هي النظرة الحقة تجاه كل شئ عظيم وعجيب في الحياة، حتى الدين وحتى المسيحية. لكنها ليست النظرة الصحيحة نحو (الخلق الجديد). بالنسبة له فإن النظرة الحقة هي الحنين العاطفي واللامتناهي.

والآن نحن نتساءل ثانية: ما هو هذا (الوجود الجديد)؟ إن (الوجود الجديد) ليس شيئاً يحتل بكل بساطة موضع (الوجود القديم). لكنه تجديد (للقديم) الذي أصبح فاسداً ومشوهاً ومنقسماً وأصبح في معظمه مدمَّراً. لكنه ليس مدمراً بالكامل إن (الخلاص) لا يدمر الخلق. لكنه يحول (الخلق القديم) إلى (خلق جديد). ومن ثم نستطيع أن نتحدث عن (الجديد) في إطار (إعادة تجديد). والإعادة ثلاثية ألا وهي: (إعادة) تصالح، إعادة (وحدة)، إعادة (بعث).

وبولس في رسالته يربط (الخلق الجديد) بالتصالح. ورسالة التصالح هي: (كن) متصالحاً مع (الله). كُفَّ عن أن تكون معادياً له (هو)، لأنه (هو) لا يعاديك مطلقاً. إن رسالة التصالح ليست هي أن (الله) يحتاج إلى أن تتصالحوا معه. فكيف يمكن أن يكون هكذا؟ فلما كان (هو) مصدر التصالح وقوته فمن ذا الذي يستطيع أن يصالحه (هو)؟. لقد حاول الوثنيون واليهود والمسيحيون - كلنا قد حاولنا وهم يحاولون أن يتصالحوا معه (هو) بالأضاحي والقرابين المقدسة والصلوات والطقوس الدينية والسلوك الخلقي وأعمال البرِّ. ولكن لو حاولنا هذا، لو حاولنا أن نعطي كل شئ له (هو) لإظهار الأعمال الخيرة التي يمكن أن ترضيه (هو)، فإننا نفشل. ليس هذا كافياً بالمرة، إننا لا نستطيع أن نرضيه (هو) مطلقاً لأن هناك مطلباً متناهياً وُضع على عاتقنا. ولما كنا لا نستطيع أن نرضيه (هو) فإننا نتطور بالعدواة له (هو). فهل حدث لكم أن لاحظتم مقدار العداوة (لله) تستقر في أعماق

الناس الخيرين والأتقياء، في أولئك الذين يبرعون في أعمال البر وفي التقوى والحماس الديني. وكل إنسان هو في هذا المأزق سواء سميّ ذلك الذي يرفضه (الله) أو (الطبيعة) أو (المصير) أو (الظروف) الاجتماعية. وكل مخلوق يحمل عداوة تجاه الوجود الذي قُذف به فيه، تجاه القوى الخفية التي تحدد حياته وحياة الكون، تجاه ذلك الذي يجعله آثماً والذي يتهدده بالدمار، لأنه أصبح آثماً. ونحن جميعاً نشعر بأننا منبوذون ونشعر بالعداوة تجاه الشئ الذي ينبذنا. ونحن جميعاً نحاول أن نسترضيه وفي فشلنا في هذا نزداد عداوة. وهذا يحدث في الغالب دون أن نلاحظه بأنفسنا. ولكن هناك عَرَضان مَرَضّيان يصعب أن نقدر أن نتجنب ملاحظتهما: العداوة ضد أنفسنا والعداوة ضد الآخرين. والمرء يتحدث في الأغلب كثيراً عن الكبرياء والغطرسة والثقة بالنفس والرضا الذاتي في الناس. ولكن هذا في معظم الحالات المستوى المصطنع من وجودهم. وتحت هذا المستوى في مستوى أعمق يوجد الرفض الذاتي والاشمئزاز وحتى كراهية المرء لنفسه. كونوا متصالحين مع (الله)، وهذا يعني في الوقت نفسه كونوا متصالحين مع أنفسكم. لكننا لسنا متصالحين مع أنفسنا، إننا نحاول أن نسترضي أنفسنا. إننا نحاول أن نجعل أنفسنا مقبولة على نحو أكبر بالنسبة لحكمنا، وعندما نفشل فإننا نزداد عداوة لأنفسنا. وإن من يشعر بأنه منبوذ أو مرفوض من قِبَل (الله) ومن ينبذ نفسه أو يرفضها يشعر أيضاً بأنّ الآخرين ينبذونه أو يرفضونه. وعندما يتطور في العداوة تجاه المصير والعداوة لنفسه فإنه يتطور في العداوة أيضاً تجاه الآخرين. وإذا ما في الغالب ارتعبنا من جراء العداوة اللاشعورية أو الشعورية فإن الناس يخوننا أو عن عداوتنا تجاه الناس الذين نعتقد أننا نحبهم، وعلينا ألا ننسى .. إنهم يشعرون بأنهم منبوذون من جانبنا، ونحن نشعر بأننا منبوذون من جانبهم. لقد بذلوا جهداً خارقاً لكي يجعلوا أنفسهم مقبولين عندنا، وقد فشلوا. وقد بذلنا جهداً خارقاً لجعل أنفسنا مقبولة عندهم، وقد فشلنا وعداوتهم عداوتنا قد نمتا. كونوا متصالحين مع (الله) - وهذا - في الوقت نفسه - كونوا متصالحين مع الآخرين! ولكن هذا (لا) يعني حاولوا أن تتصالحوا مع الآخرين، كما أنه لا يعني حاولوا أن

تتصالحوا مع أنفسكم. حاولوا أن تتصالحوا مع (الله). سوف تفشلون. هذه هي الرسالة. لقد ظهر واقع جديد فيه أنتم (تكونون) متصالحين. ولكي يمكن الدخول في (الوجود الجديد) فإننا لا نحتاج إلى أن نُظهر أي شئ. كل ما هنالك وحسب هو أننا يجب أن ننفتح حتى يستولي علينا هذا الوجود الجديد، رغم أننا لا نملك شيئاً نظهره.

أن تكونوا متصالحين - ذلك هو العلامة الأولى على (الواقع الجديد). وأن تكونوا قد استعدتم وحدتكم هو علامته الثانية. إن التصالح يجعل إعادة الوحدة ممكنة. إن (الخلق الجديد) هو الواقع الذي فيه يعاود المنفصل وحدته. إن (الوجود الجديد) واضح في (المسيح) ففيه (هو) أن الانفصال لا يمكن أبداً أن يقهر الوحدة بينه (هو) و(الله)، بينه (هو) والبشرية، بينه (هو) وبين (نفسه هو). وهذا يعطي صورته (هو) في الأناجيل قوتها الشاملة الهيمنة والتي لا تُستَنفد. فيه (هو) نتطلع إلى حياة إنسانية تحافظ على الوحدة بالرغم من أن كل شئ يدفعه (هو) إلى الانفصال. إنه يمثل ويتوسط قوة (الوجود الجديد) لأنه (هو) يمثل ويتوسط قوة وحدة لا تنفصم. وحيث يظهر (الواقع الجديد) يشعر المرء بإنه في وحدةٍ مع (الله) [٨]، مع أساس ومعنى وجود المرء. والمرء تكون له ما أُطلِق عليه حب المرء لمصيره وما يمكن أن نسميه اليوم الشجاعة أن نأخذ على عاتقنا قلقنا الخاص. ثم يمرّ المرء بتجربة مدهشة خاصة بالشعور بالوحدة مع نفس المرء، وليس في الكبرياء والاكتفاء الذاتي الزائف، ولكن في تقبل ذاتي عميق. إن المرء يكسب ذاته على أنها شئ هام للأبد، شئ محبوب على نحو أبدي، مقبول أبداً. وإن الاشمئزاز من نفس المرء وكراهية المرء لنفسه قد اختفيا. هناك محور، اتجاه، معنى للحياة. وكل المداواة - بدنياً وذهنياً - تخلق إعادة الوحدة هذه نفس المرء مع نفس المرء. وحيث تكون هناك مداواة حقيقية يوجد (هناك) (الوجود الجديد)، (الخلق الجديد). ولكن المداواة الحقيقية لا توجد فحسب حيث أن جزءاً من الجسم أو العقل يعاود اتحاده

(٨) النص كان يجب ترجمته (في اتحاد مع الله) وحتى لا يكون هناك ظل من معنى الاتحاد فضلنا أن تكون الترجمة في وحدة مع الله (المترجم).

مع الكل، بل حيث الكل نفسه، حيث كل وجودنا، حيث كل شخصيتنا تتوحد مع ذاتها. إن (الخلق الجديد) هو خلق يداوي لأنه يخلق إعادة الوحدة مع نفس المرء. وهو يخلق إعادة وحدة مع الآخرين. ولا نجد شيئاً يميز (الوجود القديم) أفضل من انفصال الإنسان عن الإنسان. ولا يوجد شئ مطلوباً على نحو انفعالي أكبر من المداواة الاجتماعية، أكبر من (الوجود الجديد) داخل التاريخ والعلاقات الإنسانية. إن الدين والمسيحية واقعان تحت اتهام قوي أنهما لم يحملا إعادة الوحدة في التاريخ الإنساني. فمن ذا الذي يمكنه أن ينكر حقيقة هذا التحدي!؟ ومع هذا فإن البشرية لا تزال تعيش، وما كان يمكنها أن تعيش أكثر إذا كانت قوة الانفصال لم تقهرها دائماً قوة معاودة الوحدة، قوة المداواة، قوة (الخلق الجديد). وعندما يستولي على المرء النفور الشخصي أو الاغتراب العنصري أو الصراعات القومية أو الفروق بين الرجل والمرأة أو الشيخوخة أو الجمال أو القوة أو المعرفة، وكل الأسباب العديدة الأخرى التي لا يمكن إحصاؤها للانفصال - (هنالك) يحدث (الخلق الجديد)! إن البشرية تعيش لأن هذا يحدث مراراً وتكراراً وإذا كانت الكنيسة هي مُجَمَّع (الله) وقد أصبح له دلالته القصوى فإن هذا هو دلالته القصوى، هذا هو معناه: فهنا يجري إعلان عودة وحدة الإنسان مع الإنسان ويجري الاعتراف بها وتحققها حتى في الشذرات وأشكال الضعف والتشويهات. إن الكنيسة هي المكان الذي فيه عودة وحدة الإنسان مع الإنسان تكون حدثاً فعلياً رغم أن كنيسة (الله) تخونها دوماً الكنائس المسيحية. ولكن رغم الخيانة والنبذ فإن (الخلق الجديد) ينقذ ويحافظ على ما تجري خيانته ونبذه: الكنائس، البشرية، والتاريخ.

إن الكنيسة شأنها شأن كل أعضائها تنتكس من (الوجود الجديد) إلى (الوجود القديم). لهذا فإن العلاقة الثالثة (للخلق الجديد) هي إعادة البعث. وكلمة "البعث" لها دلالة عند العديد من الناس إنها تعني الأجسام الميتة التي فارقت مقابرها أو الصور الخيالية الأخرى. لكن البعث

معناه انتصار الحالة (الجديدة) للأشياء [٩]، إن (الوجود الجديد) يولد من موت (القديم). والبعث ليس حدثاً يمكن أن يحدث في مستقبل بعيد، لكنه هو قوة (الوجود الجديد) لخلق الحياة من الموت، هنا والآن، اليوم وغداً. وحيث يوجد (وجود جديد) يوجد (هنالك) بعث ألا وهو الخلق في الأبد من كل لحظة في الزمن. إن علامة (الوجود القديم) هو التحلل والموت. و(الوجود الجديد) يطبع علامة جديدة على الوجود القديم. ومن التفكك والموت يولد شئ له دلالة أبدية. وذلك الذي ينغمر في التحلل ينبثق في (خلق جديد). إن البعث يحدث (الآن) أو إنه لا يحدث على الإطلاق. إنه يحدث فينا ومن حولنا، يحدث في النفس والتاريخ، يحدث في الطبيعة والكون.

التصالح وعودة الوحدة والبعث. هذه هي (الخلق الجديد)، هذه هي (الوجود الجديد)، هذه هي الحالة (الجديدة) للأشياء فهل نحن مشاركون فيه؟ إن رسالة المسيحية ليست المسيحية، بل واقع جديد. إن حالة (جديدة) للأشياء قد ظهرت، وهي لا تزال تظهر، إنها خفيَّة ومرئية، إنها هناك وإنها هنا. تقبلوها، ادخلوا فيها، دعوها تستولي عليكم.

(٩) في البعث تتبدل طبائع الأشياء وتصبح كلها جديدة فالخمرة في الدنيا ضارة وبعد البعث في الجنة ستكون لذة للشاربين والأرض التي كانت تشرق بالشمس فإنها بعد البعث ستشرق بنور ربها، إنها في خلق جديد (المترجم).

(٣)

قوة الحب

[31]«وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. [32]وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ [33]فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنِ الْيَسَارِ. [34]ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. [35]لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَآوَيْتُمُونِي. [36]عُرْيَاناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ. [37]فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ: يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً فَأَطْعَمْنَاكَ أَوْ عَطْشَاناً فَسَقَيْنَاكَ؟ [38]وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيباً فَآوَيْنَاكَ أَوْ عُرْيَاناً فَكَسَوْنَاكَ؟ [39]وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟ [40]فَيُجِيبُ الْمَلِكُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ.

(متى٢٥: ٣١- ٤٠)

[16]وَنَحْنُ قَدْ عَرَفْنَا وَصَدَّقْنَا الْمَحَبَّةَ الَّتِي لِلَّهِ فِينَا. اَللَّهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ يَثْبُتْ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ.

(رسالة يوحنا الأولى٤: ١٦)

[34]وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً. كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضاً بَعْضُكُمْ بَعْضاً. [35]بِهَذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلاَمِيذِي: إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضاً لِبَعْضٍ».

(يوحنا١٣ : ٣٤- ٣٥)

بعد مرور ألفي سنة فهل نحن لا نزال قادرين على تحقيق المعنى الوارد في القول: "الله محبة"؟ إن كاتب الرسالة الإنجيلية الأولى ليوحنا الرسول عرف تماماً ما كتبه لأنه استخلص النتائج: "ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه" إن الله فينا جاعلاً منا مستقر سكناه هو نفسه الشيء حيث نثبت في المحبة، وعلى قدر حبنا يكون مجال سكنانا. إن (الله) والحب ليسا حقيقتين اثنتين، إنهما أمر واحد. إن (وجود الله) هو وجود الحب وقوة الله اللامتناهية هي قوة الحب اللامتناهية. ولهذا فإن من يقر بالتكريس لله (يمكن) أن يكون في (الله) إذا كان في الحب، أو قد لا يكون في (الله) إذا لم يكن في الحب. وإن من لا يتحدث عن

(الله) يمكن أن يكون فيه (هو) إذا كان في الحب. ولما كان تجلي (الله) باعتباره حباً فإنه هو تجليه (هو) في (يسوع المسيح). ويسوع يستطيع أن يقول إن الكثيرين ممن لا يعرفونه (هو) وأن الكثيرين ممّن يقرُّون بولائهم له (هو) لا يمتون إليه (هو). إن المعيار، المعيار الأقصى الوحيد هو الحب. لأن (الله) محبة، والحب الإلهي يتجلى بانتصار في المسيح المصلوب (١٠).

ودعوني أحْكِ لكم قصة امرأة ماتت منذ قليل من السنين والتي كانت حياتها مستقرة في الحب بالرغم من أنها نادراً ما استخدمت اسم (الله). هذا إذا كانت استخدمته أصلاً ورغم أنها كانت ستندهش إذا ما قال لها مخلوق ما أنها تنتمي إليه (هو) الذي يحكم على جميع الناس لأنه (هو) محبة والحب هو المعيار الوحيد لحكمه (هو).

إن اسمها إلزا براندستروم، ابنة سفير سويدي سابق لروسيا. لكن اسمها يتردد على شفاه وفي قلوب مئات الآلاف من أسرى الحرب إبان الحرب العالمية الأولى على أنها ملاك سيبريا. لقد كانت ممن لا يثور جدل حولهم، لقد كانت شاهدة حية على حقيقة أن الحب هو القوة العظمى (للوجود)، حتى في قرن ينتمي إلى أشد جميع القرون حلكة وتدميراً وقسوة منذ فجر البشرية.

في بداية الحرب العالمية الأولى عندما كانت إلزا براند ستروم في الرابعة والعشرين من عمرها تطلعت من نافذة السفارة السويدية إلى ما كان مدينة سنت بطرسبرج ورأت أسرى الحرب الألمان يساقون خلال الشوارع في طريقهم إلى سيبريا. ومنذ تلك اللحظة وطالع لم تستطع أن تتحمل عظمة الحياة الدبلوماسية حيث كانت حينئذ مركزاً جميلاً وقوياً. لقد أصبحت ممرضة وبدأت تزور معسكرات الاعتقال.

---

(١٠) جاء في القرآن الكريم: "وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً وحكيماً (١٥٨) (سورة النساء) (المترجم).

وهناك رأت أشكالاً من الرعب المخيف وهي وهي فتاة في العشرين بدأت وتكاد تكون وحيدة قتال الحب ضد القسوة، ولقد انتصرت. كان عليها أن تقاتل ضد مقاومة السلطات ولقد انتصرت. كان عليها أن تقاتل ضد الوحشية وغيبة القانون لدى حراس السجن ولقد انتصرت. كان عليها أن تقاتل ضد البرد والجوع والقذارة والمرض، ضد ظروف قطر غير نام وضد حرب مدمرة، ولقد انتصرت. ولقد أعطاها الحب الحكمة مع البراءة، وأعطاها الجرأة مع الاستبصار. وعندما تظهر ينهزم اليأس ويبرأ الأسى. لقد زارت الجوعى وأعطتهم طعاماً. لقد رأت العطاشى وأعطتهم شراباً. لقد رحبت بالعزّاب وكست العريان وأعانت المرضى. وهي نفسها سقطت مريضة وسُجنت ولكن (الله) كان يعمرها. وكانت قوة الحب التي لا تقاوم معها.

وهي لم تكف عن أن تدفعها هذه القوة. وبعد الحرب شرعت في عمل عظيم ليتامى أسر الحرب الألمان والروس. ومرآها وسط هؤلاء الأطفال حيث كانت هي شمسهم المشرقة دوماً والوحيدة كان ولا شك ذا تأثير ديني حاسم على الكثيرين. ومع مجئ النازية اضطرت هي وزوجها أن يتركا ألمانيا وأتيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وهنا أصبحت عوناً لعديد من اللاجئين الأوربيين، ولمدة عشر سنوات كنت قادراً بشكل شخصي على أن ألاحظ العبقرية الخلاقة لحبها. لم تدر بيننا على الإطلاق محادثة لاهوتية. كان الأمر غير ضروري. لقد جعلت (الله) جلياً في كل لحظة. وذلك أن (الله) الذي هو المحبة يعمُرُها وهي عامرة فيه (هو). لقد ابتعثت حب الملايين تجاه نفسها وذلك الذي كانت عنده شفافة - (الله) الذي هو محبة. وهي في فراش احتضارها استقبلت وفداً من ملك وشعب السويد يمثل عديداً من الناس من كل أنحاء أوربا يؤكد لها بأنه لن ينساها أولئك الذين أعادت لهم معنى حياتهم.

إنها لهي هبة نادرة أن نلتقي بإنسان فيه الحب - وهذا يعني (الله) - يتجلى على نحو شامل. لقد استأصلت العجرفة اللاهوتية وكذلك العزلة الورعة. لقد كان الأمر أكثر من العدالة وكان أعظم من الإيمان والأمل. إنه حضور (الله نفسه) وذلك لأن (الله) محبة. وفي كل لحظة من الحب الأصيل إنما نعمر في الله ويعمر الله فينا.

(٤)

القاعدة الذهبية

^١٢^فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً بِهِمْ لأَنَّ هَذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ. (متى ٧: ١٢)

في فترة حديثة كان عليّ أن أفكر في علاقة الحب بالعدالة. ولقد خَطَر لي أنه بين كلمات يسوع هناك عبارة تُسَمَّى (القاعدة الذهبية). والقاعدة الذهبية كانت معروفة للغاية عند اليهود واليونانيين وإن كان معظمها بصيغة سلبية. إن ما لا تريد من الناس أن يفعلوا لك لا تريد أنت أن تفعل لهم. ومن المؤكد أن الشكل الإيجابي أغنى في المعنى وأقرب إلى الحب ولكنه ليس الحب. إن الأمر أمر عدالة محسوبة. فكيف - إذن - ترتبط بالحب؟ كيف نلائم رسالة مملكة الرب وعدالة المملكة كما جرى التعبير عنها في (الموعظة على الجبل) حيث تظهر القاعدة الذهبية؟

دعونا نفكر في يوم عادي في حياتنا وفي المناسبات الملائمة لتطبيق القاعدة الذهبية. إننا نتقابل كل منا مع الآخر في الصباح، ونحن نتوقع وجهاً صديقا أو كلمة ودودة ونحن مستعدون أن نعطي هذا رغم أن عقولنا حافلة بالتوقع القلق لأثقال اليوم. فهناك من يريد جزءاً من وقتنا المحدود، ونحن نعطيه، ونحن نطلب من شخص آخر أن يعطينا جانباً من وقته. إننا نحتاج المساعدة ونحن نعطيها إذا ما طلب منا رغم أنه يتضمن التضحية. نحن صرحاء مع الآخرين، ونحن نتوقع أن يكونوا هم صرحاء معنا حتى لو كان هذا يؤذي. ونحن عادلون بالنسبة لمن يحاربون ضدنا، ونحن نتوقع العدالة منهم. إننا نشارك في أحزان جيراننا ونحن متأكدون أنهم سوف يشاركوننا أحزاننا. كل هذا يمكن أن يحدث في يوم واحد. كل هذا هو القاعدة الذهبية. فإذا انتهك مخلوق هذه القاعدة بوعي أو بدون وعي فإننا نريد أن نغفر وذلك بأمل أن يُغْفَرَ لنا. وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة أن (القاعدة الذهبية) بالنسبة

لعديد من الناس تعد المحتوى الحق للمسيحية. وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة أنه باسم (القاعدة الذهبية) يجري خطر النقد، والعمل المستقل لا يجري تشجيعه، ويجري تجنب المشكلات العويصة. بل إنه مفهوم حتى أن الساسة يطلبون من الأمم الأخرى أن تتصرف تجاه أمتهم وفق (القاعدة الذهبية). وألم يقل يسوع (نفسه) إن (القاعدة الذهبية) هي الناموس والأنبياء؟

ولكننا نعرف أن هذا ليس هو جواب (العهد الجديد). إن الوصية العظيمة على نحو ما يكررها يسوع وأوصاف المحبة عند بولس والتأكيد العظيم من قِبَل يوحنا من أن الله (هو) المحبة، يتجاوز على نحو لا متناه (القاعدة الذهبية). يجب تجاوزها لأنها لا تقول لنا ما (ينبغي) أن نرغب فيه ألا وهو ما ينبغي أن يعمله الناس لنا. إننا نرغب في التحرر من الواجبات التي تثقل علينا. ونحن مستعدون أن نعطي الحرية نفسها للآخرين لكن هناك إنسان ما يحبنا يرفض أن يعطينا الحرية، وهو نفسه يرفض أن يطالبنا بها. وإذا فعل فيجب أن نرفض أن نعطيها له لأنها ستقلل من نموّنا وتنتهك قانون المحبة. إننا نرغب أن نتلقى ثروة تجعلنا آمنين ومستقلين. ونحن سنكون مهيئين أن نعطي ثروة لصديق يسألنا إياها، هذا لو كانت عندنا. ولكن في كلا الحالين سيجري انتهاك الحب. وذلك لأن الهبة ستحطمنا وستحطمه. إننا نريد أن يُغفر لنا ونحن مستعدون لعمل الشئ نفسه ولكنه ربما في كلا الحالين هو هرب من جدية مشكلة شخصية ومن ثم يكون هناك عداء للحب.

إن معيار ما سوف نفعله للناس لا يمكن أن يكون رغباتنا بشأن ما سوف يعملونه لنا. وذلك لأن رغباتنا لا تعبر وحسب عن حقنا. بل تعبر أيضاً عن خطئنا وعن حُمْقنا على نحو أكبر من حكمتنا. وهذا هو حد (القاعدة الذهبية). هذا هو حد العدالة المحسوبة. وبالنسبة وحسب لمن يعرف ما (ينبغي) له أن يرغب فيه والذي يرغب فيه بالفعل على أنه هو (القاعدة الذهبية) صادق صدقاً مطلقاً. ولكن الحب وحده يستطيع أن يحول العدالة المحسوبة إلى عدالة إبداعية خلاقة. إن الحب يجعل العدالة عادلة. وإن العدل بدون الحب هو دائماً جور لأنه لا يعمل العدالة للآخر ولا للنفس

ولا للموقف الذي تتلاقى فيه. وذلك لأن الآخر وأنا ونحن معاً في هذه اللحظة في هذا الموضع نكون متفردين، نكون في وضع لا يتكرر، ننادي بعمل فريد لا يتكرر من الحب الموحِّد. وإذا لم يُسْمَع هذا النداء بالإنصات إلى الحب، وإذا لم تحدث طاعة من جانب العبقرية الخلاقة للحب يحدث الجوْر. وهذا حق حتى لذات المرء. إن من يحب إنما ينصت لنداء لبِّه الصميمي الخاص به ويطيع هذا النداء ويعمل العدالة من أجل وجوده هو الخاص.

إن الحب لا يمحو العدالة ولكنه يؤسسنا. إنه لا يضيف شيئاً لما تفعله العدالة بل إنه يُظْهِرُ للعدالة ما عليها أن تعمله. إنه يجعل (القاعدة الذهبية) ممكنة. وذلك أننا لا نتحدث من أجل حب يبتلع العدالة. فهذا ينتهي إلى الفوضى والانقراض. ولكننا نتحدث من أجل حب فيه العدالة هي شكل وبناء الحب. إننا نتحدث من أجل حب يحترم الإنسان الآخر بالاعتراف به على نحو ما هو عليه والدعوة لأنفسنا أن يكون هناك اعتراف بنا على نحو ما نحن عليه، وفوق كل شئ. باعتبارنا أشخاصاً. وإن الحب المشوه وحده هو الذي يكون غطاء للعداوة أو الاشمئزاز الذاتي والذي ينكر أن الحب يوحّد. إن الحب يجعل العدالة عادلة. إن الحب الإلهي إنما يبرر الحب الذي يتقبل الإنسان ويحققه ألا وهو الإنسان الذي بمقتضى العدالة المحسوبة يجب نبذه. إن تبرير الإنسان الذي هو ليس عادلاً هو تحقق عدالة (الله) الخلاقة، وحبه (هو) الذي يوحد.

(٥)

عن المداواة

(القسم الأول)

"ثُمَّ دَعَا تَلاَمِيذَهُ الاثْنَيْ عَشَرَ وَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً عَلَى أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ حَتَّى يُخْرِجُوهَا وَيَشْفُوا كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ. (متى ١٠: ١)

في الفترة الأخيرة أمضيت ثلاثة أشهر في ألمانيا وما رأيته هو شعب مريض، مريض ككل، ومريض كأفراد. إن وجوههم شاحبة من كثرة الأعباء الملقاة على عاتقهم والتي لا يطيقون حملها، من كثرة الأحزان التي يصعب نسيانها. وإن ما تعبر عنه وجوههم، وتعبر عنه كلماتهم يؤكد: حكايات الرعب، قصص الألم واليأس، أشكال القلق المستقرة في دمهم، التشوشات والتناقضات الذاتية التي تجعل عقولهم تضطرب. وإذا أنتم نظرتم على نحو أعمق فيهم فسوف تجدون الشعور بالذنب، أحياناً يتبدى، وغالباً ما يتم كبته. وذلك أن هذا الشعور بالذنب يخفي ذاته وراء أشكال التنكر العاطفي للذنب ووراء التبرير الذاتي والاتهامات الموجهة للآخرين والشفقة الذاتية والكراهية الذاتية. إن الأمة منقسمة للغاية بالانقسام بين الشرق والغرب الذي يقسم البشرية كلها سياسياً وروحياً. والأمة تنقسم باطنياً. والعداوات القديمة تظهر الأحقاد، والعداوات الجديدة تتنافى وما من سلام. إنها أمة مريضة.

ولكن داخل هذه الأمة وجدت شعبا كان صحيا، لا بسبب أن المرض لم يكن مكتوباً في وجهوههم أيضاً. ولكن كان فيهم شئ آخر، قوة مداواة، تجعلهم كلا رغم توزعهم، يجعلهم متجلدين بالرغم من أحزانهم، تجعلهم أمثلة تُضرب لنا جميعاً، أمثلة عما يمكن أن يحدث أو يجب أن يحدث لنا!

لنا..؟ ولكن ألسنا أمة تتمتع بالصحة؟ ذلك على وجه اليقين هو ما تعتقدونه عندما تعودون من ألمانيا وأوربا إلى هذا القطر! إن وجه معظم الناس يتشكّل بالابتسامات لا بالدموع. هناك وشيجة من الواحد تجاه الآخر بل حتى تجاه الأعداء. إن الناس هنا راغبون في الاعتراف بنواقصهم مثل التفرقة العنصرية والاستغلال والمنافسة المدمرة. لقد اعتادوا على التصرف بطريقة تلقائية وليس تحت الضغط الذي يفرضه

عليهم الطغاة أو الغزاة، بل وما هو أصعب الذي تفرضه عليهم الصحف والإذاعات واستفتاءات الرأي العام فهذه هي طغاة الديمقراطية الحديثة.
إنه تمتع بالصحة!

ولكننا نقرأ أن في هذه الأمة حوالي ٤٠ ٪ من كل الشباب الذين لم تستوعبهم القوات المسلحة هم غير مقبولين بسبب الاضطرابات العقلية وأشكال عدم التكيف. ونحن نسمع أنه من بين كل الأمراض فإن المرض العقلي هو الأكثر انتشاراً في هذا البلد. فماذا يعني هذا؟ إنه علامة مَرَضِيَّة على الخطر الشديد على صحتنا: قد يكون هناك شئ في بناء مؤسساتنا التي تنتج المرض في مزيد ومزيد من الناس. قد يكون الأمر - على سبيل المثال - أن المنافسة المطلقة الهوجاء التي تسلب كل إنسان شعوره بالأمان تجعل الكثيرين في بلدنا المتمتع بالصحة مرضى، إنهم ليسوا وحسب الذين هم غير ناجحين في المنافسة، بل أيضاً أولئك الذين هم أكثر الناس نجاحاً. ومن ثمَّ يحدث شئ عجيب: لقد ناضلنا بانتصار ضد أشكال عديدة من المرض العضوي. لقد اكتشفنا عقاقير لها قوة عجيبة هائلة. ومتوسط أعمارنا طال على نحو فاق كل توقع سابق. لكن الكثيرين في أمتنا لا يستطيعون أن يطبقوا هذه الصحة. إنهم يريدون المرض كملجأ يستطيعون أن يهربوا إليه من مشاق الحياة غير الآمنة. ولما كانت العناية الطبية صعَّبت على نحو أشد على الهرب إلى المرض الجسماني فقد اختاروا المرض (العقلي). ولكن ألم يكره كل مخلوق المرض والألم والتعب والخطر المرتبط بالمرض العقلي؟ بالطبع، إننا نكره مرضنا المتعلق ببعض أجزاء نفوسنا، ولكننا نحبه بالنسبة لأجزاء أخرى، وفي الأغلب على نحو لا شعوري، وأحياناً حتى على نحو شعوري. ولكن ما من مخلوق يمكن أن يتداوى خاصة من الاضطرابات العقلية والأمراض الذهنية لا يريده من صميم قلبه. وهذا هو السبب الذي جعلهم يصبحون في الأغلب موبوئين في هذا البلد. والناس يهربون إلى موقف حيث يجب على الآخرين أن يعتنوا بهم، حيث يمارسون قوة من خلال الضعف أو حيث يخلقون عالماً خيالياً حيث يكون جميلاً أن يعيشوا طالما أن الحياة الواقعية لا تمسُّهم. وأرجوا ألا تغمطوا هذا الإغراء حقه. إن عدم

الأمان الأساسي للوجود الإنساني والقلق الجارف المرتبط به يجري استشعارهما في كل مكان ومن جانب كل إنسان. إنه إرث إنساني وهو يتزايد على نحو هائل من جراء عالمنا الراهن حتى في بلدنا هذا الحافل بالنشاط والصحة.

وكما هو عندنا فإن الأمر كذلك في حقبة يسوع حيث كان الحديث يتواصل عن المرض والمداواة. ولقد كتب اليهود واليونانيون عن هذا. لقد شعر الناس أنهم عاشوا في حقبة مريضة، وأطلقوا عليه "(هذه) الحقبة من العالم" ولقد وصفوها على نحو مماثل تماماً للنحو الذي نصفها به اليوم. إنهم لم يروا فحسب التشوهات الجسمانية عندنا جميعاً، والأمراض الجسمانية المتعددة، في جماهير الناس، ولقد رأوا أيضاً القوى التدميرية التي تستولي على عقول العديدين. وهم يسمون المريض بمرض عقلي الممسوس أو الشيطاني وهم يحاولون أن يطردوا الأرواح الشريرة. إنهم يعرفون أيضاً أن الأمم يمكن أن تكون مريضة وأن أمراض الطبقات الاجتماعية تعدي كل فرد في الأمة. بل إنهم يتطلعون حتى إلى ما وراء حدود البشرية إلى الطبيعة ويتحدثون بوجد استبصاري عن أن هذه الأرض أخذت تشيخ وتمرض بمثل ما نفعل نحن عندما نكون واقعين تحت الصدمة الأولى للقوة النّووية للدمار الذاتي. ومن خلال هذه المعرفة بحقبة مريضة فإن التساؤل عن حقبة جديدة، حقبة واقع الصحة والكلية إنما ينطرح. إن الخلاص والمُخَلِّص أمران متوقعان. لكن الخلاص هو مداواة. والمخلص هو المداوي. ومن هنا يسوع يجيب عن السؤال المحيرّ عن التعميد عما إذا كان (هو) المُخَلِّص بأن يشير إلى قوة مداواته (هو). وهذا هو ما يقوله: ماذا كنت أستطيع أن أداوي الأصم والأعمى، إذا كنت أقدر على تحرير المريض عقلياً إذن فإن هناك واقعاً جديداً قد حطّ عليكم!" وهناك قصص عديدة عن المداواة في الأناجيل وهناك رصيد هائل للدارسين والوعاظ والمدرسين لأنهم يأخذون هذه المسائل على أنها قصص معجزات عن الماضي بدل أن يأخذوها على أنها قصص مداواة للحاضر. وهم موجودون لهذا. إنهم يظهرون الموقف الإنساني، يظهرون العلاقة بين المرض الجسماني والمرض العقلي، بين المرض

والإثم، بين الرغبة في أن يحدث التداوي والخوف من أن يتم التداوي. وإنه لأمر مدهش أن العديد من بصائرنا الحديثة العميقة بالطبيعة الإنسانية جرى توقعها في هذه القصص: إنهم يعرفون أن المرء عندما يصبح بصحة فإن هذا يعني أنه أصبح كُلاً، أصبح في وحدة جديدة في وظائفه الجسمانية والنفسية. وهم يعرفون أن المريض عقلياً خائف من سيرورة المداواة، لأنها تبعدهم خارج ما هو محدود ولكنها تحفظ لهم بيت عزلتهم الذاتية الذهانية، وهم يعرفون أن سيرورة المداواة العقلية هي سيرورة شاقة ومؤلمة مصاحبة باضطرابات الجسم والنفس. وهم يحكون عن العلاقة بين الإثم والمرض، يحكون عن الطريقة التي فيها تدفعنا الصراعات المستعصية عن الحل لضميرنا إلى تلك الانقسامات الخاصة بالجسم والنفس والتي نسميها المرض. ويقال لنا كيف أن يسوع وقد عرف هذا يعلن للمشلول أولاً غفران خطاياه ثم يعلن له صحته المستعادة. وإن هذا الإنسان قد عاش في صراع باطني مع نفسه، مع شعوره بالذنب. ومن خلال هذا الصراع نَمَا مَرَضُه، والآن عندما يغفر له يسوع يشعر بأنه متصالح مع نفسه ومع العالم، إنه يصبح كُلاً وصحيحاً. ويوجد القليل في علم نفسنا الحديث عن الأعماق يتجاوز هذه البصائر في الحقيقة وفي العمق. وهذه القصص تصف أيضاً وجهة النظر التي تجعل المداواة ممكنة. إنهم يسمون هذا الإيمان. والإيمان - هنا - بطبيعة الحال - لا يعني الاعتقاد بالتأكيدات التي ليس لها أي بيِّنة. إن الأمر لا يعني هذا إطلاقاً في الدين الأصيل، ولا يجب على الإطلاق إساءة استعمال هذا بهذا المعنى. غير أن الإيمان يعني أن تستولي على المرء قوة أكبر منا، قوة تهزنا وتبدلنا وتحولنا وتداوينا. والاستسلام لهذه القوة هو الإيمان والناس الذين استطاع يسوع أن يداويهم والذين يستطيع يسوع أن يداويهم هم الذين فعلوا ويفعلون هذا الاستسلام الذاتي لقوة المداواة فيه (هو). إنهم يتنازلون مُسَلِّمين شخوصهم وانقسامهم وأنفسهم المتناقضة واشمئزازهم ويأسهم من أنفسهم وكراهيتهم لأنفسهم وبالتالي عداواتهم تجاه كل مخلوق آخر، إنهم خائفون من الحياة، إنهم مثقلون بمشاعر الذنب وهم يتهمون أنفسهم ويغدرونها، وهم يهربون من الآخرين إلى العزلة، إنهم يهربون

من أنفسهم إلى الآخرين، وهم يحاولون بشكل نهائي أن يهربوا من تهديدات وجودهم إلى أمان مؤلم وخادع للمرض العقلي والجسماني. وهم ككائنات على هذا النحو. إنما يستسلمون ليسوع وهذا الاستسلام هو الذي نسميع الإيمان. لكنه لا يبقيهم هكذا كمعاونٍ ممتاز يجب أن يفعل هذا، لكنه يردهم ثانيةً إلى أنفسهم باعتبارهم مخلوقات جديدة تمت مداواتهم وأصبحوا كُلاً. وعندما مات ترك (هو) مجموعة من الناس - بالرغم من الكثير من القلق والخلاف والضعف والذنب لديهم يقين أنه تمت مداواتهم وأن قوة المداواة بينهم كانت كبيرة لدرجة تكفي لقهر الأفراد والأمم في جميع أنحاء العالم. ونحن ننتمي إلى هؤلاء الناس إذا ما استولى علينا هذا الواقع الجديد الذي ظهر فيه (هو). إن (لدينا) قوة مداواته هو في أنفسنا نحن.

لقد سُمّي يسوع الطبيب، والطبيب هو أول من نسأله عندما نتطلع إلى الصحة. وهذا أمر حَسَن. وذلك - كما عرفت كل الأجيال - إنه توجد قوة مداواة في الطبيعة. والكثير من المداواة ممكن إذا ما استخدمت هذه القوة بحكمه واستعين بها بمهارة. والذين يحتقرون هذه الإعانة ويعتمدون على قوة إرادتهم يتجاهلون كلا القوة المدمرة وصداقة الطبيعة البنّاءة. إنهم لا يعرفون أن جسمنا لا يحتوي وحسب على قوى الخلاف والنزاع بين عناصره بل إنه يحتوي أيضاً قوى التناغم. والطبيب العظيم هو الذي لا يقطع بسهولة الأجزاء ويغض الطرف بسهولة عن وظيفة واحدة لصالح وظيفة أخرى، بل هو ذلك الشخص الذي يدعم الكل حتى أنه داخل وحدة الجسم يمكن تصالح العناصر المتصارعة. وهذا ممكن حتى ولو كانت الآثار العميقة لصراعاتنا الأسبق في جسمنا تظل باقية بقاء حياتنا.

يستطيع الطبيب أن يعينٍ، وهو يستطيع أن يبقينا أحياء، لكن هل يستطيع أن يجعلنا كُلاًّ؟ هل يستطيع أن يعطينا الخلاص؟ مؤكد أن الجواب بالنفي إذا كان الخلاف والتمزق والقلق تحكم حياتنا العقلية، إذا لم تكن هناك وحدة وبالتالي لم تكن هناك حرية في نفسنا، إذا ما تملكنا أشكال الإرغام والشطحات الخيالية وتملكنا القلق المتقطع والعدوان

المتقطع، إذا كان الاضطراب العقلي أو المرض كلها تهددنا أو تكون قد قهرتنا. ثم إذا ما أردنا أن نتداوى فإننا نطلب العون من الأصدقاء أو الأخصائيين الاستشاريين أو المحللين أو الأطباء العقليين. وهم - إذا كانوا يعرفون ما يجب أن يعملوه - يحاولون أن يعينوا قوى المداواة في نفسنا. إنهم لا ينشدون قوة إرادتنا، إنهم لا يطلبون إزالة أي تيار أو كبته، بل هم يعملون من أجل التصالح، تصالحٍ القوى المتصارعة لنفسنا. إنهم يتقبلوننا على ما نحن عليه، وهم يُمَكنوننا من أن ننظر إلى أنفسنا وبنورانية، لنعرف الآليات الغريبة التي وراءها تعاني وكي نحلها، ولكي نصالح القوى الأصيلة لنفسنا كل قوة مع القوى الأخرى وجعلنا أحراراً في التفكير والعمل.

إن الأخصائي الاستشاري أو الطبيب العقلي يستطيع أن (يُعين)، أنه يستطيع أن يحررنا، ولكن هل يستطيع أن يجعلنا كُلاً؟ هل يستطيع أن يعطينا الخلاص؟ مؤكد أن الجواب بالنفي إذا لم نكن قادرين على استخدام حريتنا وإذا ما غزتنا الصراعات المأساوية لوجودنا. ما من أحد منا في عزلة. إننا ننتمي لماضينا، لأسرنا، لفئاتنا، لجماعاتنا، لأمتنا، لثقافاتنا. وفي كل هذا تتصارع الصحة والمرض. فكيف يمكن أن نكون كُلاً إذا كانت الثقافة تنقسم داخل ذاتها، إذا كانت كل قيمة ينكرها آخرون، إذا كانت كل حقيقة يجري التساؤل بشأنها، إذا كانٍ كل قرار هو حَسَن وسئ في الوقت نفسه؟ كيف يمكن لنا أن نكون كُلاً إذا كانت المؤسسات التي نعيش فيها تخلق الاغراءات والصراعات والكوارث بعبء ثقيل باهظ لكل منا؟ كيف يمكن لنا أن نكون كُلاً إذا كنا مرتبطين وفي الغالب مرتبطين على نحو صميمي بأناس في خلاف مع أنفسهم، في عداوة ضدنا، أو إذا كان يجب علينا أن نعيش مع أناس أفراداً وجماعات وأمماً غير متصالحين ومرضى؟ وهذا هو وضعنا جميعاً، وهذا الوضع يؤثر في حياتنا الشخصية ويُقَطّع التناغم الذي يمكن أن نصل إليه. إن التصالح في نفوسنا وفي الغالب حتى في أجسامنا ينهار في مواجهتنا للواقع. من ذا الذي يداوي الواقع؟ من ذا الذي يحمل لنا واقعاً جديداً؟ من ذا الذي يصالح القوى المتصارعة لوجودنا الكلي؟ ونحن نتطلع إلى أولئك الذين هم الأكثر مسئولية عن

مؤسساتنا، عن واقعنا التاريخي، وقادتنا وساستنا وحكمائنا ومثقفينا والطبيين والحشود الثورية. هناك قوىي مداوية عندهم جميعاً وإلا لن يكون هناك تاريخ.

ومفهوم أنه في عهد يسوع كان الحكام يسمون المخلِّصين والمداوين. إنهم يستطيعون أن يحافظوا على الحياة الإنسانية على الأرض، ولكن هل يمكن أن يجعلونا كُلاً، هل يستطيعون أن يحملوا لنا الخلاص؟

إنهم لا يستطيعون لأنهم هم أنفسهم محتاجون للكلية وهم يحنون للخلاص. فمن يداوي المداوي؟ لا يوجد جواب على هذا في الواقع القديم. إن كل شخص موبوء وكل مؤسسة موبوءة، المُدَاوِي والمُدَاوَى. والواقع الجديد وحده يستطيع أن يجعل منا كُلاً وينفذ في الواقع القديم ويجعله يتصالح مع نفسه. إن الوجد الذي لا يصدق والإنساني غالباً ما تجرى هزيمته، ولكن لا يمكن إطلاقاً غزو إيمان المسيحية من أن هذا الواقع الجديد الذي كان يعمل دائماً في التاريخ، قد ظهر في اكتماله وظهر كقوة في (يسوع)، (المسيح)، (المداوي) و(المُخَلِّص). وهذا يقال عنه (هو) لأنه هو وحده لم يعط شريعة أخرى للفكر أو العمل، لأنه (هو) لم يستقطع أي شئ أو يكتب أي شئ ينتمي للحياة، ولكنه لأنه (هو) واقع التصالح، لأن فيه (هو) تأتَّى لنا واقع جديد حيث فيه يجري تقبل وجودنا الكلي ويعاد توحيده. ونحن نعرف - حتى عندما نقر بهذا الإيمان بالصراع والمرض لم يختف. إن أجسامنا تشيخ وتموت، ونفوسنا غير مستقرة، وعالمنا هو ساحة حرب للأفراد والجماعات. لكن الواقع الجديد لا يمكن الإطاحة به. إننا نعيش فيه، حتى لو أنّنا لا نعرفه. لأنه هو هو التصالح والذي عمله هو الكلية والذي اسمه هو الحب.

عن المداواة

(القسم الثاني)

[3] (الرَّبُّ) يَشْفِي الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوب وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ. ......: [1]بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ. [2]بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ وَلاَ تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ. [3]الَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. الَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ. [4]الَّذِي يَفْدِي مِنَ الْحُفْرَةِ حَيَاتَكِ. الَّذِي يُكَلِّلُكِ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ. (المزمور ١٤٧، المزمور ١٠٣)

كيف صورنا يسوع (المسيح)؟ لا يهم ما إذا كنا صورناه بالخطوط والألوان على نحو ما فعل الفنانون المصورون المسيحيون العظام في كل الأحقاب أو على نحو ما صورناه (هو) في المواعظ، على نحو ما يفعل الوعاظ المسيحيون في يوم الأحد وفي يوم الأحد التالي وهكذا، أو على نحو ما صورناه (هو) في الكتب التعليمية، في اللاهوت الإنجيلي أو النسقي، أو على نحو ما صورناه (هو) في قلوبنا، في تكريسنا، في تخيلنا وفي حبنا. في كل حالة علينا أن نجيب على السؤال: كيف صورنا يسوع (المسيح)؟ إن القصص الواردة في إنجيل متّي تساهم في الجواب، إن هذه القصص تضيف لوناً، تضيف تعبيراً، تضيف مَعلَماً بالغ الشدة، إنها تصوره (هو) على أنه المداوي: ومن العجيب أن هذا اللون، هذا التعبير الحي عن طبيعته (هو)، هذا المَعلَمَ القوي بشخصيته (هو) ازداد ضياعه أو فقدانه في عصرنا: إن الألوان الرمادية لمعلم أخلاقي، والتعبير المكثف لمصلح اجتماعي، والمعالم الناعمة لخادم يعاني هي المساعدة، على الأقل بين مصورينا ولاهوتينا وروائي حياة يسوع، وربما ليس هذا كثيراً في قلوب الناس الذين يحتاجون إلى شخص ما لكي يداويهم.

من المؤكد أن الأناجيل ليست مسئولة عن هذا الاختفاء للقوة في صورة يسوع. إن الأناجيل تتضمن قصص المداواة، ولكننا (نحن) المسئولون: الكهنة والناس العاديون واللاهوتيون الذين نسوا أن (المخلص) يعني (المداوي) الذي يجعل الذي يتحطم والمختل كُلاً وصحيحاً في الجسم والعقل. وإن المرأة التي واجهته (هو) أصبحت

كلاً، والمتشيطن الذي قابله (هو) تحرر من انقسامه العقلي. وأولئك الذين هم متقطعون ومنقسمون ومفككون تجري مداواتهم على يديه (هو). ولأن الأمر على هذا النحوٍ، لأن هذه القوة قد ظهرت على الأرض، فإن (مملكة الرب) قد حطت علينا، هذا هو الرد الذي أعطاه يسوع (للفريسيين) عندما ناقشوا قوة مداواته (هو) للممسوس عقلياً، هذا هو الرد الذي أعطاه (هو) للمعمداني لكي يتغلب على شكوكه، هذا هو الأمر الذي أعطاه (هو) لتلامذته (هو) عندما أرسلهم (هو) إلى مدن إسرائيل.

> ٥هَؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: «إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. ٦بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. ٧وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. ٨اِشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصاً. أَقِيمُوا مَوْتَى. أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ. مَجَّاناً أَخَذْتُمْ مَجَّاناً أَعْطُوا.
>
> (متى ١٠: ٥- ٨) [١١]

هذا هو ما سوف يعملون ومن أجل (هذا) فإنه (هو) أعطاهم السلطة والقوة، ففيه (هو) قد ظهرت مملكة الرب، وطبيعتها هي الخلاص، هي مداواة ذلك الذي هو مريض، هي جعل ما انكسر كُلاً.

فهل نحن لا نزال قادرين على تجريب هذه القوة؟ أنا لا أتحدث عن المحظورات اللاهوتية بشأن تقبل مثل هذه الصورة (للمسيح). وهذه المحظورات ليس لها وزن كبير. بطبيعة الحال نحن قلقون بشأن قصص المعجزات لعدة عقود من السنين، واليوم نحن نعرف ما قد عرفه (العهد الجديد) دائماً - إن المعجزات هي علامات تشير إلى حضور قوة إلهية في الطبيعة والتاريخ، وهي ليست بأي حال من الأحوال أشكالاً نافية

---

(١١) النص الذي أورده بول تيليش مستقطع دون أن يشير إلى موضع النص في الكتاب المقدس. وقد فضلت إيراد النص كاملاً حتى يتضح المعنى (المترجم).

للقوانين الطبيعية. بطبيعة الحال لقد كنا قلقين ونحن قلقون بشأن سوء استخدام المداواة الدينية للأغراض التجارية والإنسانية الأخرى أو بشأن تشويهها وتحويلها إلى سحر وخرافة. لكن أشكال سوء استخدام تحدث عندما يكون الاستخدام الحق غير متوفر وتظهر الخرافات عندما يصبح الإيمان ضعيفاً. كل هذه الأمور ليست مشكلات خطيرة، واللاهوت الحَسَن والممارسة الحسنة كفيلان بحلها.

لكن المشكلة الخطيرة هي - كما هي دائماً - مشكلة وجودنا الخاص. هل نحن تداوينا، هي نحن تلقينا قوى مداوية هنا وهناك من قوة صورة يسوع باعتباره (المُخَلِّص)؟ هل استولت علينا هذه القوة؟ هل هي قوية بما فيه الكفاية للتغلب على تياراتنا الذهانية وتمرد نضالاتنا اللاشعورية والانقسام في وجودنا الواعي والأمراض التي تفكك عقولنا وتدمر أجسامنا في الوقت نفسه؟ هل تغلبنا في لحظات النعمة أو البَرَكة على القلق المُعَذِّب في عمق قلوبنا والتزعزع الذي لا يكف عن تحريكنا وجلدنا بالسياط والرغبات غير المتحكم في انضباطها وأشكال القمع الخفية التي تعود على شكل كراهية سامّة والعداوة ضد أنفسنا والآخرين، ضد الحياة نفسها، والإرادة الخفية للموت؟ هل جربنا الآن وبعد ذلك في لحظات البَرَكة أو النعمة أو اللطف الإلهي أننا صرنا كُلاً، وأن الأرواح المدمرة قد غادرتنا وأن الضغوط النفسية قد انحلّت وأن الآليات الطاغية في نفسنا قد حلت محلها الحرية، وأن الناس، وهو أخر كل الانقسامات هذا المرض الحقيقي حتى الموت قد جرت مداواته وأنه قد تم لنا الخلاص من التدمير الذاتي؟ هل حدث لنا هذا في ظل قوة صورة يسوع باعتباره المُخَلِّص؟ هذه هي المشكلة الحقيقية، هذه هي المشكلة التعليلية اللاهوتية لشخص المسيح (إذا ما تحدثنا على نحو لاهوتي)، مشكلة الحياة والموت (إذا ما تحدثنا إنسانياً) بالنسبة لكل مسيحي وبالنسبة للنصرانية أو العالم المسيحي اليوم. هل نتوجه إلى الأطباء وحدهم أو إلى المعالجين النفسيين وحدهم أو للأخصائيين الاستشاريين وحدهم لكي نتداوى؟ وبطبيعة الحال فإننا أحياناً يجب أن نتوجه إليهم، ولكن هل نحن بالفعل نتوجه أيضاً إلى - وبدقة أكبر - هل نحن بالفعل نتلقى القوة المداوية في صورة (المسيح) الذي يُسمى

(المُخلص)؟ هذا هو السؤال المطروح أمامنا وهذا السؤال يرد عليه أولئك الذين يمكنهم أن يقصوا علينا أنهم قد جربوا قوته (هو) المداوية وأن (الوجودِ الجديد) (قد) استولى على أجسامهم ونفوسهم، وأنهم (قد) أصبحوا كلاً وأصحاء مرة أخرى وأن الخلاص (قد) تأتّاهم. ليس دائماً بالطبع، بل في تلك اللحظات التي هي لحظات البَرَكة والتي توقعوا فيها الكليّة الكاملة، كلية (الله) من أنه في الكل. فهل نستطيع أن نلتحق بهذا الجواب؟

(٦)

التلف المقدس

[٣]وَفِيمَا هُوَ فِي بَيْتِ عَنْيَا فِي بَيْتِ سِمْعَانَ الأَبْرَصِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ جَاءَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا قَارُورَةُ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ الثَّمَنِ. فَكَسَرَتِ الْقَارُورَةَ وَسَكَبَتْهُ عَلَى رَأْسِهِ. [٤]وَكَانَ قَوْمٌ مُغْتَاظِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا: «لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ الطِّيبِ هَذَا؟ [٥]لأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هَذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ». وَكَانُوا يُؤَنِّبُونَهَا. [٦]أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ: «اتْرُكُوهَا! لِمَاذَا تُزْعِجُونَهَا؟ قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلاً حَسَناً. [٧]لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ وَمَتَى أَرَدْتُمْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِمْ خَيْراً. وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ. [٨]عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا. قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِالطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ. [٩]اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهَذَا الإِنْجِيلِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ يُخْبَرْ أَيْضاً بِمَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ تَذْكَاراً لَهَا».

(مرقس ١٤: ٣- ٩)

ماذا تراها قد فعلت؟ لقد ضربت مثلاً على تلف هو - كما يقول يسوع - شئ جميل. إنه - إن جاز لنا القول - تلف مقدس [(١٢)]، تلف ينمو من وفرة القلب. إنها تمثل عنصراً حافلاً بالوجد في علاقتنا (بالله) بينما يمثل التلاميذ أو الحواريون العنصر العاقل. فمن ذا الذي يستطيع أن يلوم التلاميذ بالنسبة لغضبهم عن التلف الهائل الذي أوجدته هذه المرأة؟ من المؤكد أن الأمر ليس أمر شمّاس كنيسة عليه أن يرعى الفقراء، أو أمر عامل اجتماعي يعرف أكثر الحالات احتياجاً ولا يستطيع أن يساعد أو كاهن كنيسة يجمع نقوداً للمشروعات الهامة. ومن المؤكد أن التلاميذ لن يتعرضوا للّوم من جانب شخصية متوازنة لها حياتها الانفعالية الواقعة بشكل رائع تحت السيطرة حيث أن الأمر في نظرها هو أسوأ

(١٢) حافظنا طوال هذا الفصل على ترجمة كلمة waste بالتلف حسب الترجمة العربية للكتاب المقدس. وعنوان الفصل (التلف المقدس) فيه مفارقة أو تناقض ظاهري فالقوم مغتاظون رأوا في دهان المرأة ليسوع تلفاً أو تبديداً أو مضيعة للنقود على حين أن هذا الفعل كان عملاً حسناً بالنسبة ليسوع. فالتلف تلف في أعين الناس لكنه فعل مقدس بالنسبة ليسوع ومن هنا جاء عنوان الفصل بما فيه من تناقض ظاهري (المترجم).

من لا شئ حتى ما هو إجرامي بأن تفكر في عمل ما قد عملته هذه المراة. إن يسوع شعر على نحو مختلف وكذلك الكنيسة في بواكيرها. لقد عرفا أنه بدون الوفرة في القلب فما من شئ عظيم يمكن أن يحدث. لقد عرفا أن الدين داخل حدود المعقولية هو دين مبتور أو مشوه وأن الحب المحسوب ليس حباً على الإطلاق: إن يسوع لم يطرح التساؤل عن مقدار الحب وعن مقدار العشق وكم مقدار العاطفة الإنسانية وكم مقدار الفهم كانا يحركان المرأة، لقد رأى القلب العامر بالوفرة و(هو) تقبّل هذا القلب دون أن يحلل العناصر المختلفة فيه. وهناك مناسبات يجب أن نحلل بأنفسنا والآخرين ومن المؤكد أنه ينبغي علينا أن نعرف شيئاً عن تعقّد الدوافع الإنسانية ولكن هذا لا يجب أن يمنعنا من تقبل تلف الاستسلام الذاتي غير المحسوب كما لا يجب أن يمنعنا من تلف أنفسنا فيما وراء حدود الشريعة والعقلانية.

وإن تاريخ البشرية هو تاريخ الرجال والنساء الذين أتلفوا أنفسهم ولم يخافوا أن يتلفوها إن لم يخافوا تلف أنفسهم، وتلف الناس الآخرين، وتلف الأشياء التي هي في خدمة خلق جديد. ولقد كان لهم تبريرهم، وذلك لأنهم أتلفوا كل هذا انطلاقاً من عمار قلوبهم. لقد بدّدوا على نحو ما أن الله يفعل في الطبيعة والتاريخ، في الخلق والخلاص. ووحوش الطبيعة التي أشار إليها (يَهوَه) في رده (هو) على أيوب - أليسوا سوى تعبيرات عن الوفرة الإلهية؟ وإن (رب لوثر) الذي يفعل ببطولة وبدون قواعد - أليس (هو) الرب المُبَدِّد الذي يخلق ويدمر لكي يخلق ثانية؟ ألم تفقد البروتستنتانية قدراً كبيراً بإتلافها الاستسلام الذاتي لدى القديسين والصوفية؟ ألسنا في خطر المنفعة العامة الدينية والخلقية والتي تطلب دائماً غرضاً معقولاً - وهو نفس السؤال المشابه الذي سأله التلاميذ في بيت عَنْيَا؟ لا توجد أي إبداعية، أو أي شئ إلهي أو إنساني بدون التلف المقدس الذي ينجم من الوفرة الإبداعية للقلب ولا يسأل: "ما هي الجدوى في هذا؟".

إننا نعرف أن نقص الحب في سنواتنا المبكرة مُدَمِّر عقلياً ولكن هل نعرف بالفعل أن افتقاد المناسبات لإتلاف أنفسنا خطر بنفس القدر؟ لدى

أناس عديدين هناك وفرة القلب. غير القوانين والقناعات والسيطرة الذاتية الصارمة كبتت هذه الوفرة ولقد ماتت. إن الناس مَرضى ليس وحسب بسبب أنهم لم يتلقوا الحب بل أيضاً بسبب أنه لم يُسمَح لهم بمنح الحب، لم يسمح لهم بإتلاف أنفسهم. فلا تكبتوا في أنفسكم أو في الآخرين القلب العامر وتلف الاستسلام الذاتي و(الروح) التي تعلوا على كل الأسباب لا تحتفظوا وأنتم طامعون بزمانكم ومؤنكم لما هو مفيد ولما هو معقول. دعوا أنفسكم تنفتح للحظة الخلاقة التي قد تظهر وسط ما يبدو أنه مضيعة. لا تكبتوا في أنفسهم الدافع لعمل ما قامت به المرأة التي في بيت عنيا من عمل. سوف يُوَجَّه إليكم اللوم على نحو ما لام التلاميذ المرأة. لكن يسوع كان في صفها و(هو) أيضاً في صفكم. إن معظم أولئك الذين هم عظام في مملكة الرب يقتفون خطاها وإن التلاميذ، المسيحيين العقلانيين في كل عصور التاريخ سوف يذكرونكم بمثل ما أنهم تذكروها.

ولقد ربط يسوع هذا الدهان لجسمه (هو) بموته (هو). إن هناك دهاناً للملوك عندما يبدأون حكمهم وهناك دهان للجثمان كهدية أخيرة من الحي إلى الميت. ولقد تحدث يسوع عن النوع الأخير من الدهان رغم أنه قد يكون قد تكلم بسهولة عن الدهان الآخر. وهو بهذا يحول كلا الوجد لدى المرأة وفي معقولية التلاميذ إلى شئ آخر. وهو بموته (هو) تحولت أخلاقيات تلاميذه العقلانية إلى مفارقة أو تناقض ظاهري: إن المسيح، المدهون أو الممسوح، يجب أن يتلف (نفسه) لكي يصبح (المسيح). وإن الاستسلام الذاتي الحافل بالوجد عند المرأة جرى اختباره من خلال الفناء الشائن لموضوع تكريسها الذي بلا حدود. وفي كلا الحالين مطلوب منا أن نتقبل عملاً أكثر تطرُّفاً، أكثر ألوهية، أكثر انقاذاً من إما التلف القائم على الوجد أو العبادة العقلانية. والصلب لا ينفصل من التلف المقدس، الاستسلام الحافل بالوجد. إن هذا التلف هو أشد أشكال التلف اكتمالاً وقداسة. و(الصليب) لا ينتصّل من العمل الحافل بالغرض، العبادة العقلانية. إنه تحقق الحكمة كلها داخل خطة الخلاص. وفي الاستسلام الذاتي فإن (الصليب) والعقل والوجد والطاعة الخلقية والتلف المقدس تتوحد. فهل يمكن أن تتوفر لنا وفرة القلب لإتلاف أنفسنا على أنه عبادتنا العقلانية!

(٧)

الرؤساء والقوى

٣٨فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً ٣٩وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا.

(رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ٣٨- ٣٩)

هذه الكلمات هي من ضمن أشد ما قد كُتب قوة. وإن صوتها قادر على الاستحواذ على النفوس الإنسانية في المواقف الحافلة باليأس. وفي تجربتي فإن هذه الكلمات برهنت على أنها أقوى من صوت القنابل المدوية، أقوى من البكاء عند قبر مفتوح، أقوى من تأوهات المرضى، أقوى من أنين المحتضرين. إنها أقوى من الاتهام الذاتي الموجه لأولئك الذين هم في اليأس فيما يتعلق بأنفسهم وهم ينتصرون على الهمس الدائم للقلق في أعماق وجودنا. فما هو الشئ الذي يجعل هذه الكلمات قوية على هذا النحو؟

ليس الأمر أمر معنى الكلمات الحرفي ففي إطارات عديدة نجد أن هذا غريباً علينا. إن الملائكة والرؤساء، العلوّ والعمق، بل وحتى الحياة والموت، كلها تشير إلى كويكبات النجوم التي حسب المعتقدات القديمة تحدد مصير الإنسان والتاريخ. إن الناس هم في قوتهم، مدفوعون بالخوف وهم يقاتلون من أجل الشجاعة، وأحياناً يكونون المنتصرين وفي أكثر الأحيان يكونون منهزمين. هذا هو مازق الناس الذين كان يتحدث إليهم بولس. وفي عديد من المرات في رسائله يلخص معنى المسيحية في رسالة أن (المسيح) قد قهر هذه القوى التي تحكم العالم، ولكن لم يحدث في أي موضع أن أكد هذا بمثل زهو الانتصار كما في الكلمات الجميلة والقوية الموجهة إلى أهل رومية.

فإذا كانت لهذه الكلمات قوة على نفوسنا في زماننا فإنها لابد وأنها تقول شيئاً نستشعره على أنه حق، حتى ولو لم نشارك في الاعتقاد القديم بالنجوم والكويكبات. إنها تحدد القوى التي نحن مقيدون بها ومعنا كل الناس في كل حقب التاريخ، وكل الخليقة. وهي تُظهر لنا ما يستطيع

أن يعطينا يقيناً بأن هذه القوى لن تتسيّد علينا، وأنه سيجري قهرها، وأننا نستطيع أن نشارك في الانتصار عليها.

من ذا الذي في السنوات الأخيرة وفي الحقيقة في قرننا كله، لا يشعر بالقوى التي لا يمكن مقاومتها والتي تحدد مصيرنا التاريخي والشخصي؟ إنها تدفع الأمم والأفراد إلى صراعات تستعصى على الحل وهي صراعات داخلية وخارجية، إنها تدفُعها إلى الغطرسة والجنون، تدفعها إلى التمرد واليأس، تدفعها إلى اللا إنسانية والتدمير الذاتي. وكل واحد منّا وارد في هذه الصراعات ومُساقٌ بشكل أكبر أو أصغر بهذه القوى. وإن الحياة الشخصية لكل منا تتحدد على نحو ما بهذه القوى. ما من أمان مضمون لأي مخلوق، لا بيت ولا عمل ولا صديق ولا أسرة ولا قطر في أي موضع العالم آمن، لا خطط مؤكد إنجازها، كل الآمال مهددة. وليس هذا حالة جديدة للأشياء في التاريخ البشري. لكن الجديد هو أنه إبان السنوات القليلة من الأمان النسبي نسينا أن هذا هو الحالة الحقيقية للأشياء. والآن نحن نرى هذه الحالة ثانية في كل مكان وذلك أننا فجأة نعيش في وسطها في كل ناحية من أنحاء العالم.

ونحن، ونحن مساقون بقوى القَدَر نطرح السؤال الذي طرحته البشرية دائماً: ما الكامن وراء كل هذا، ما هو معناه، وكيف يمكن أن نطيقه؟

قبل الحقبة المسيحية بزمن طويل تحدث الناس عن العناية الإلهية التي تعمل من وراء القوى المندفعة للحياة والتاريخ. وفي المسيحية فإن كلمات يسوع عن طيور الهواء وزنبقات الحقل ومطلبه ألا نقلق بشأن الغد قد دعمت الإيمان بالعناية الإلهية. لقد أصبحت العقيدة المشتركة الأعظم للمسيحيين. لقد أعطتهم الشجاعة في الخطر، والعزاء في الحزن، والأمل بين الحطام. لكن هذا الأمان فقد عمقه أكثر وأكثر. لقد أصبح أمراً مسلماً به وسُلب منه طابعه المهيمن والمدهش والمنتصر الذي له في كلمات بولس.

وعندما انخرط الجنود الألمان في الحرب العالمية الأولى فقد شارك معظمهم الاعتقاد السائد (برب) رائع سوف يجعل كل شئ يعمل للأحسن. وبالفعل، نجد أن كل شئ كان يعمل ولكن للأسوأ للأمة ويكاد يكون لكل فرد فيها. وفي خنادق الحرب فإن الاعتقاد السائد في العناية الإلهية الشخصية تحطم تدريجياً وفي السنة الخامسة من الحرب لم يتبق منه شئ. وإبان الحرب العالمية الثانية وبعدها وقعت تطورات مماثلة في ألمانيا. وفي التوترات السياسية والمخاوف في عقد السنين الأخير[١٣] فإن الإيمان بالعناية التاريخية قد تحطم أيضاً والثقة التي شاركت فيها جماعات عديدة في ألمانيا من أن كل شئ في التاريخ سيتحول تماماً إلى الأفضل كادت أن تختفي. واليوم لم يتبق منها شئ كثير.

ما من إيمان شخصي أو تاريخي بالعناية كان له عمق أو أساس حقيقي. فهذه العقائد كانت نتاجات التفكير القائم على التمني وليس الإيمان. إن الإيمان بالعناية الإلهية ليس (جزءاً) من الإيمان المسيحي - جزءاً يسهل الاستحواذ عليه بشكل أسهل عن الأجزاء الأخرى. وليس الأمر - حسب ما أخبرني به مرة شخص ريفي عجوز - أن الناس تؤمن بشدة بالعناية الإلهية، بل إن المحتويات الأسمى للإيمان المسيحي، الخطيئة والخلاص، (المسيح) والكنيسة، غريبة عليهم. فإذا كان الأمر هكذا إذن فإن معنى العناية الإلهية يجب أن يكون أيضاً غريباً عنهم، وإن إيمانهم بالعناية الإلهية معرض للانهيار كما حدث لعقائد إبان عواصف بلدنا ألمانيا. (إن الإيمان بالعناية الإلهية هو إيمان كلي شامل). إنه الشجاعة في أن نقول مباركة حياة الإنسان والحياة بصفة عامة بالرغم من القوى الجارفة للقدر، بالرغم من أشكال عدم الأمان في الوجود اليومي، بالرغم من كوارث الوجود وتحطم المعنى.

وبمثل هذه الشجاعة يتحدث بولس في النص الذي أمامنا. لكن أولاً إنه يتحدث عن القوى التي تحاول أن تجعل هذه الشجاعة مستحيلة. فماذا تفعل هذه القوى؟ إنها تفصلنا عن حب (الله). وهذه الجملة مدهشة. قد تشير إلى أخطار الألم والموت التي تهدد حياتنا يوماً بعد يوم. وبولس من المؤكد أنه غير مدرك إياها. لقد عددها على أنها "المحنة أو الكرب

أو الاضطهاد أو المجاعة أو التجرد أو الخطر أو الخصام" لكنه يشعر هو نفسه بأنه قادر على قهرها جميعاً. ثم إنه يشرع مرة أخرى ويعدد القوى التي تهددنا والتي تفصلنا عن محبة (الله). وهناك شئ غامض بالنسبة لهذه القوى. هي أنها ليست لها أسماء شريرة مثل تلك التي عددها بولس سابقاً، معظمها لها أسماء رنانة "الملائكة"، "الرؤساء"، "الحياة"، "الرفعة". فلماذا تكون هي الأخطار التي هي أشدها تهديداً؟ الأمر يرجع إلى أنها دائماً تعمل في كل لحظة من لحظات حياتنا ولأن لها وجهاً مزدوجاً. إنها القوى التي تحكم العالم وهي تحكمه من أجل الخير ومن أجل الشر. إنها تستولي علينا بما تحمله من خير وهي تدمرنا بما تحمله من الشر الذي تحتويه. وهذا هو السبب الذي يجعلها أشد خطورة من الشرور الواضحة. هذا هو السبب الذي يجعل الانتصار عليها هو الاختبار الأعظم الذي يبرهن على أن يسوع هو (المسيح)، حامل الحالة الجديدة للأشياء.

ودعونا ننظر في طبيعتها، لا كما لو كانت غريبة بالنسبة لنا بل باعتبارها قوى جارفة خاصة بوجودنا . "الملائكة والرؤساء" هما اسمان لقوتين من هذه القوى. وهاتان الكلمتان كلاهما تشيران إلى حقيقة هي نفسها، حقيقة ليس فيها إلا القليل المشترك لدى الأطفال المجنحين الرائعين الذين يظهرون في الصور الأكثر شعبية عن الملائكة. إنهما يشيران إلى حقائق هي في وقت واحد عظيمة ومخيفة معاً، حقائق حافلة بالجمال وحافلة بالدمار. فما هي هذه الحقائق؟ لا يجب أن نذهب بعيداً لكي نكتشفها، فهي فينا جميعاً، في أسرنا، في أمتنا، في عالمنا. فبأي علامات نتبينها؟ بخليط من الامتنان الذي لا يُقاوَم والقلق الذي لا يُقهرَ. واسم قوة من هذه القوى ذات الوجه الملائكي هي الحب. وشِعر كل اللغات غارق في مدح هذه الصفة الرئيسية الحاكمة على حياة الناس جميعاً. وإن وجهها الملائكي يتبدى في الصور والتماثيل، في الجمال الملائكي المدوي من خلال الموسيقى، والامتنان الإلهي بها يجري التعبير عنه في شخوص الآلهة الوثنية والربات الوثنية. وفي الوقت نفسه فإن كل الأعمال الفنية وكل الأساطير حافلة بالأعمال المأساوية والمميتة عن ملاك الحب. إن الامتنان والخوف، الفرح والذنب، الإبداع

والتدمير كلها متوحدة في هذا الحاكم العظيم المتحكم في حياتنا. وإن كلا الفرح والقلق الخاصين بالحب يميلان إلى فصلنا عن محبة (الله)، فالفرح يفصلنا عن (الله) ويدفعنا نحوه هو فهو الفرح، والقلق يفصلنا بأن يقذفنا في ظلام اليأس حيث لا نستطيع أن نتبين (الله) بعد هذا.

وهناك رئيس آخر من هؤلاء الرؤساء وهو رئيس ملائكي وشيطاني معاً، ألا وهو القوة. فله الجمال الرجولي الشديد الذي نراه في بعض صور الملائكة الرئيسية العظام. وهذه القوة هي ملاك عظيم، خيرة وشريرة، على غرار الحب الذي هو رئيس مقتدر وهو باني وحامي المدن والأمم، إنه قوة خلاقة في كل مشروع إنساني، في كل جماعة إنسانية، في كل إنجاز إنساني. وهو مسئول عن قهر الطبيعة، وتنظيم الدول، وتنفيذ العدالة. والحليف القوي لملاك الحب هذا شخص ملائكي آخر، خير وشرير، ألا وهو المعرفة. ونحن جميعاً في قبضتها. وتاريخ العالم هو المملكة التي يتجلى فيها ملاك القوة بأشد وضوح لعظمته وكل مأساته. ولا حاجة إلى أن نقول المزيد عنه للناس في زماننا. فكل صباح يحمل لنا أخباراً عن هذا الحاكم لعالمنا. ونحن قد حدث استحواذ علينا من جانب الرعب الشيطاني لنزعته التدميرية في حياتنا الشخصية وكذلك في حياة أممنا. وعندما تتحالف القوة مع المعرفة - معرفة لم يحلم بها أحد من قبل في تاريخ البشرية - فإن الامتنان وكذلك الرعب يتزايدان بشكل لا متناه. وكلتاهما - القوة والمعرفة - تفصلاننا عن محبة (الله) - "الرفعة والعمق" - و"الأشياء الراهنة والأشياء التي ستتأتّى". وكل إنسان يفهم معناهما بدون دليل. ولكن يصعب أن تستنفد غِنَى هذا المعنى. الرفعة والعمق هما نقطتا الأوج والحضيض في حركات النجوم، هما نقطتا ذروة التأثير وتدني التأثير، للخير وللشر، إن الأوج والعمق هما لحظتان فيهما نجد أن سيرورة الحياة تصل إلى أقصى تحققها، في الحيوية والنجاح والقوة، وفيها تصل إلى أضعف تحقق وربما نهايتها. الأوج والعمق هو لحظتا الانتصار والهزيمة، التحقق والخواء، الرفعة والانحطاط، الامتنان والقلق. وكلتا اللحظتين - الأوج وكذلك العمق - تحاولان فصلنا عن محبة (الله) الأوج عن طريق نوره والعمق بحلكته، وكلتاهما تجعلان (الله) غير مرئي.

"الأشياء الراهنة والأشياء التي ستأتي" - إن الأشياء الراهنة تشير إلى الذي يحدثه الحاضر علينا. إنها تشير إلى قوة الانتهاك التي يمارسها الحاضر، تشير إلى رفضنا أن ننظر إلى الوراء أو إلى الأمام عندما نقع في قبضة المتعة الحادة أو الألم الحاد من جراء اللحظة الحاضرة. و"الأشياء التي ستتأتى" تعني توقع الجديد، الفرح بما ليس متوقعاً، الشجاعة في المخاطرة. لكنها تعني أيضاً ما لا يُحصى، العَرَضي، القلق مما هو غريب ومجهول.

ودعونا ننهي هذا التعدّد الإحصائي بزوجين من أشد القوى تهديداً والذي بدأها بولس: "الموت والحياة". هذان الشيئان ينتمي كل منهما للآخر. والموت في كل حياة حاضر دائماً، إنه يعمل في الجسم والنفس من لحظة التصور إلى لحظة التحلل. إنه ماثل في بداية حياتنا بمثل ما أنه ماثل عند نهايتها. في لحظة ولادتنا نبدأ في الموت، ونستمر في هذا يومياً طوال حياتنا. إن النمو هو موت لأنه يقوض ظروف الحياة حتى وهو يزيد الحياة. لكن عدم النمو هو موت مباشر. وكلنا جميعاً بين الامتنان بالحياة والقلق من الموت، وأحياناً بين القلق على الحياة وسحر الموت. الموت والحياة هما القوتان الأعظم والشاملتان وهما يحاولان أن يفصلانا عن حب (الله).

لقد نظرنا إلى القوى التي تحكم العالم والتي يجب أن ينتصر عليها الإيمان بالعناية الإلهية. فما هو هذا الإيمان؟ بالتأكيد إنه ليس الاعتقاد بأن كل شئ سوف يصبح على ما يرام في النهاية. إنه ليس الاعتقاد بأن كل شئ يقتفي أثر خطة جرى تصورها من قبل سواء سمينا الذي خطط (الله) أو (الطبيعة) أو (القدر). إن الحياة ليست آلة مصنوعة صناعة جيدة من جانب بانيها وهي تسير وفق قوى وقوانين تركيبتها الآلية. والحياة - الشخصية والتاريخية - هي سيرورة إبداعية وتدميرية حيث أن الحرية والمصير، الصدفة والضرورة، المسئولية والمأساة تختلطان في كل شئ وفي كل لحظة. وهذه التوترات والالتباسات والصراعات تجعل الحياة على نحو ما هي عليه. إنها تخلق الامتنان والرعب من الحياة. إنها تدفع بنا إلى مسألة شجاعة يمكن أن تتقبل الحياة بدون أن تقهرها الحياة، وهذه هي مسالة العناية الإلهية.

ولكن دعونا الآن نترك كلمة (العناية الإلهية) بكل مدلولاتها المزيفة وننظر في معناها الحقيقي. إنها تعني الشجاعة في تقبل الحياة في قوة ذلك الذي هو أكبر من الحياة. لقد سمّى بولس هذا حب الله. ومن المؤكد أن هذا الحب فوق الشكل الملائكي - الشيطاني للحب الذي تحدثنا عنه. هذا الحب هو القوة القصوى للوحدة، هو الانتصار الأقصى على الانفصال. وبالاتحاد معه فإنه يمكننا أن نقف فوق الحياة في وسط الحياة. إنه يمكننا من تقبل حكام الحياة أصحاب الوجه المزدوج وافتتانهم وقلقهم وعظمتهم ورعبهم إنه يعطينا اليقين بأنه ما من لحظة ممكنة فيها يمكننا أن يمتنع عنا الوصول إلى الانجاز الذي نحوه تسعى إليه الحياة. وهذا هو الشجاعة لتقبل الحياة في القوة حيث تتجنّد الحياة ويجري قهرها.

والآن إذا سألتم الآن كيف يمكن هذا فإننا نعود ثانية إلى ترنيمة بولس ونجد هناك جوابين. لقد أنهى القائمة الخاصة بالقوى الحاكمة بالكلمات "وليس أي شئ آخر في كل (الخليقة)". إن قوى هذا العالم هي (مخلوقات) شأنها في هذا شأننا. إنها ليست أكثر منا، إنها محدودة. ونحن متحدون بذلك الذي ليس مخلوقاً والذي أساسه الخلاق ما من مخلوق يمكن أن يدمره، ثم نعرف أن هذه القوى لا تستطيع أن تدمر (معنى) حياتنا حتى إذا ما كانت تستطيع أن تدمر حياتنا. وهذا يعطينا يقيناً بأنه ما من مخلوق يمكن أن يدمر معنى الحياة الكلي، في الطبيعة وكذلك في التاريخ، والذي نحن جزء منه حتى لو ينبغي على التاريخ والكون كله أن يدمرا نفسيهما غداً. ما من مخلوق يمكنه أن يدمرنا عن هذه الشجاعة القصوى. ما من أحد؟ ربما هناك واحد - هو أنفسنا. ففي وجه كل القوى والرؤساء بما في ذلك الحياة والموت فإن الشجاعة في التمسك بالوحدة مع (الله) تظل راسخة. ولكن هذه الوحدة تسقط عندما يفصلنا الذنب عن حب الله. وحينئذ لا نستطيع أن نواجه الموت لأن لدغة الموت هي الإثم من أننا لا نستطيع أن نواجه الحياة لأن الذنب يجرف الحياة إلى الدمار الذاتي المأساوي، إننا لا نستطيع أن نواجه الحب لأن الحب قد شوهه الطمع، ولا نستطيع أن نواجه القوة لأن القسوة أفسدتها. إننا نشيح خجلاً عن الماضي لأنه مُدَنَّس بالذنب،

ونحن نشيح خجلاً عن المستقبل لأنه قد يحمل ثمار الذنب الماضي، ولا نستطيع أن نستريح في الحاضر لأنه يتهمنا ويطردنا. إننا لا نستطيع أن نتحمل الأوج لأننا خائفون من السقوط ونحن لا نستطيع أن نتحمل العمق لأننا نشعر بأننا مسئولون عن سقوطنا. إن حكام العالم لا يمكنهم أن يحققوا ما يمكن أن يحققه الضمير القلق - تقويض شجاعتنا لتقبل الحياة. لهذا فإن رسالة بولس النهائية هي: ولا حتى ضميركم المثقل بالذنب يستطيع أن يفصلكم عن محبة الله. وذلك لأن محبة (الله) تعني أن (الله) يتقبل ذلك الذي يعرف أنه غير مقبول. هذا هو معنى كلمات بولس الختامية. "في يسوع المسيح ربنا" إنه (هو) الانتصار على حكام العالم لأنه (هو) الانتصار على قلوبنا. إن صورته (هو) تعطينا اليقين بأنه حتى قلوبنا، حتى اتهامنا الذاتي، حتى يأسنا فإن هذه الأمور من يأسنا كلها لا تستطيع أن تفصلنا عن محبة (الله) لا تستطيع أن تفصلنا عن الوحدة القصوى، لا تستطيع أن تفصلنا عن مصدر أساس الشجاعة لتقبل الحياة.

القسم الثاني

الوجود الجديد .. حرية

(٨)

ما هي الحقيقة ..؟

[١٤]وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً.... [١٧]لأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا.

(يوحنا ١: ١٤ و ١٧)

[٤٣]لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. [٤٤]أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ.

(يوحنا ٨: ٤٣ - ٤٤)

[٣٧]فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَفَأَنْتَ إِذاً مَلِكٌ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ. لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي». [٣٨]قَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «مَا هُوَ الْحَقُّ؟». وَلَمَّا قَالَ هَذَا خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً.

(يوحنا ١٨: ٣٧- ٣٨)

[٦]قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. ....

(يوحنا ١٤: ٦)

[٢١]وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ.....

(يوحنا ٣: ٢١)

[١٦]وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ [١٧]رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ.

(يوحنا١٤: ١٦- ١٧)

[١٣]وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ.

(يوحنا ١٦: ١٣)

[٧]أيُّهَا الأحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضاً، لأنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ. [٨]وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لأنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ.

(رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٧- ٨)

[٣١]فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كلاَمِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تلاَمِيذِي [٣٢]وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ». (يوحنا ٨: ٣١- ٣٢)

في الفقرات السابقة توجد كلمات يتحدث فيها يسوع عن الحقيقة. وهناك كلمة أخرى من هذه الكلمات ستكون محور تأملنا وهي الكلمة التي يربط بها (هو) الحقيقة بالحرية: "وتعرفون الحق والحق يحرركم".

إن مشكلة الحقيقة هي مشكلة إنسانية بشكل كلي، ولكنها مثل كل ما هو إنساني تجلت لأول مرة في موضع خاص في جماعة خاصة. لقد كان العقل اليوناني هو الذي كان فيه البحث الحثيث للحقيقة أكثر الأمور وضوحاً، ولقد كان العالم اليوناني هو الذي فيه وله كُتب إنجيل يوحنا. والكلمات - التي قالها هنا يسوع - هي - وفق العادة القديمة - قد وُضعت على لسانه من جانب أحد مؤلفي الأناجيل الذي أراد أن يبين جواب المسيحية على المشكلة المحورية لدى العقل الهلليني: مشكلة الحقيقة. والجواب قد أعطِيَ لنا أيضاً لأننا - أيضاً - نتساءل عن مشكلة الحقيقة. وبعضنا يتساءل عنها على نحو وجداني وأحياناً على نحو يائس بمثل ما فعل اليونانيون.

وغالباً أنه حدث في عصر سحيق أننا استثارتنا الرغبة في الحقيقة. وعندما كنت أنا نفسي صبياً في الخامسة عشر وتلقيت كلمات نصنا جعلتها شعاراً لحياتي المستقبلية من الكاهن الواثق الذي تصادف أنه أبي وقد شعرت بأن هذا كان هو ما أصبو إليه بالضبط، وإنني أتذكر أنني لم أكن وحدي في جماعتي بهذا الاشتياق للحقيقة. لكنني لاحظت أيضاً في نفسي وفي الآخرين أن العاطفة المبكرة للحقيقة كان مقدراً لها

أن تفقد إبان سنوات المراهقة والبلوغ من حياتنا. فكيف حدث هذا؟

إن الحقيقة التي تلقاها الطفل أول ما تلقى قد فُرضت عليه من البالغين وفي مقدمتهم أبواه. والأمر لا يمكن أن يكون على نحو آخر، وهو لم يملك إلا أن يتقبلها. وقد أخمِدَت العاطفة من أجل الحقيقة من جراء الأجوبة التي لها ثقل السلطة التي لا تُنَاقَش، سواء كانت هذه السلطة هي سلطة الأم أو الأب، أو صديق أكبر، أو زمرة، أو ممثلي أنموذج اجتماعي. ولكن الطفل إن عاجلاً أو آجلاً إنما يتمرد ضد الحقيقة التي تُعطى له. إنه ينكر السلطات إما كلها معاً أو سلطة منها باسم سلطة أخرى. وهو يستخدم المدرسين ضد الآباء، ويستخدم الزمرة ضد المدرسين، ويستخدم صديقاً ضد الزمرة ويستخدم المجتمع ضد الصديق.

والتمرد لم تكن هناك إمكانية لتجنبه بمثل ما حدث باعتماده المبكر على السلطة. إن السلطات تعطيه شيئاً يعيش عليه، والتمرد يجعله مسئولاً عن الحقيقة التي يتقبلها أو يرفضها.

ولكن سواء كان الأمر في الطاعة أم في التمرد فإن الوقت قد حان عنده لينفتح طريق جديد لنا وخاصة لمن كانوا في بيئات أكاديمية: إنه طريق العمل الدراسي. ولقد أخذناه على عاتقنا بشغف. لقد بدا أنه طريق آمن، ناجح، مستقل عن كلا السلطة والرغبة. لقد تحرر من الابتسارات والخرافات، ولقد جعلنا متواضعين وأمناء. فأين شئ آخر بجانب العمل الدراسي يجب أن نبحث عن الحقيقة؟ هناك العديدون في حقبتنا صغار وكبار، بدائيون ومحنّكون، عمليون وعلميون، تقبلوا هذا الجواب دون تردد. لقد كانت الحقيقة الدراسية بالنسبة لهم حقيقة حقا. إن الشعر يمكن أن يعطي الجمال، لكن من المؤكد أنه لا يعطي الحقيقة. وفلسفة الأخلاق قد تساعدنا على الحياة الطيبة، لكنها لا تعيننا بالنسبة للحقيقة. والدين يمكن أن انفعالات عميقة ولكن لا يجب أن يترتّب على هذا أن لديه الحقيقة. إن العلم وحده يكون الحقيقة. إنه يعطينا بصائر جديدة عن الطريقة التي تعمل بها الطبيعة ونسيج التاريخ الإنساني والأشياء الخفية في العقل الإنساني. إن العلم يعطي شعوراً بالفرح

لا يقل عن أي فرح آخر. وإن مَن قد لاشى هذا التحول من الظلام أو العتامة إلى النور الساطع نور المعرفة سوف يمدح دائماً الحقيقة العلمية والفهم العلمي ويقول مع بعض لاهوتيي العصور الوسطى العظام. إن المبادئ التي من خلالها نعرف عالمنا هي النور الإلهي الأبدي في نفوسنا. ومع هذا عندما نسأل هؤلاء القوم الذين أنهوا دراساتهم في كلياتنا وجامعاتنا عما إذا كانوا قد وجدوا هناك حقيقة لها صلة بحياتهم فإنهم سيردون وهم مترددون. البعض سوف يقولون أنهم فقدوا ما كان لديهم من حقيقة مناسبة، وآخرون سوف يقولون إنهم لا يعبأون بمثل هذه الحقيقة لأن الحياة تسير من يوم إلى آخر بدونها. وهناك فريق ثالث سوف يقولون لكم لقد كان هناك كتاب، كانت هناك حادثة خارج دراساتهم هي أعطتهم شعوراً بحقيقة تهمهم. ولكنهم جميعاً سيتفقون على أن العمل الدراسي ليس هو الذي يستطيع أن يعطي الحقيقة المناسبة لحياتنا.

فأين في موضع آخر يمكن أن نجد الجواب؟ "ليس في أي مكان" هكذا رد بيلاطس في حديثه مع يسوع. "إنه يسأل "ما هو الحق" وهو يعبر بهذه الكلمات الثلاث عن يأسه ويأس معاصريه من الحقيقة، وهو يعبر أيضاً عن اليأس من الحقيقة لدى ملايين من معاصرينا في المدارس والأستوديوهات، في العمل وفي المهن. لدينا جميعاً سواء بشكل علني أو خفي سواء بإقرار أو برفض، فإن اليأس من الحقيقة هو تهديد دائم. إننا أطفال زماننا على نحو ما كان بيلاطس. وكلا الحقبتين حقبتا تحلل، حقبتا فقدان عالم واسعٍ من القيم والمعاني. وما من مخلوق يستطيع أن يفصل نفسه انفصالاً تاماً عن هذا الواقع وما من مخلوق لا يحب حتى أن يحاول. ودعوني أقم بشئ غير عادي من وجهة نظر مسيحية ألا وهو التعبير عن الثناء على بيلاطس - ليس القاضي غير العادل، ولكن الساخر والشكاك، وكل أولئك الموجودين بيننا والذين نجد أن سؤال بيلاطس لا يزال حياً بينهم. وذلك أنه في أعماق كل شك خطير للغاية وكل يأس من الحقيقة فإن العاطفة للحقيقة لا تزال تعمل عملها. لا تستسلموا سريعاً للغاية لأولئك الذين يريدون أن يخففوا قلقكم فيما يتعلق بالحقيقة. لا يجب أن تغويكم حقيقة هي

ليست حقيقتكم حقاً، حتى لو كان الذي يغويكم هو كنيستكم أو حزبكم أو تراثكم الأبوي. امضوا مع بيلاطس إذا لم تستطيعوا أن تمضوا مع يسوع، ولكن امضوا معه بكل جدية.

إن الإغراءات لتجنّب عبء الحقيقة التي تهم هي إغراءات مزدوجة. الأول هو طريقة هؤلاء الذين يزعمون أن لديهم الحقيقة والثاني هو طريقة أولئك الذين لا يعبأون بالحقيقة. الناس الأولون هم الذين يسمون في إنجيلنا (اليهود). إنهم يشيرون إلى تراثهم الذي يرتد إلى ابراهام. إن أبراهام هو أبوهم [١٤]، ومن ثم فلديهم كل الحقيقة ومن ثم لا يجب أن يقلقوا من المشكلة التي واجهوها في يسوع. وكثير من بيننا، مسيحيين ودنيويين (يهود) بالمعنى الوارد في الإنجيل الرابع [١٥] إنهم يشيرون إلى تراثهم (هم) الذي يرتد إلى آباء الكنيسة أو البابوات أو (المصلحين) أو واضعي الدستور الأمريكي. إن كنيستهم أو أمتهم هي أمهم، ومن ثم فلديهم كل الحقيقة ولا يحتاجون إلى أن ما يقولونه بالنسبة لمشكلة الحقيقة. فهل يقول لهم يسوع - على وجه الاحتمال - ما قاله (هو) لليهود - من أنه حتى لو كانت الكنيسة أو الأمة هي أمهم، فإنهم يحملون معهم تراث أب اللاحقيقة، وأن الحقيقة التي لديهم ليست الحقيقة التي تحقق الحرية؟ من المؤكد أنه لا توجد أي حرية حيث يوجد رضاء ذاتي عن حقيقة معتقات المرء الخاصة. لا توجد حرية حيث يوجد الجهل وحيث يوجد الرفض المتعصب للأفكار الأجنبية وطرق الحياة. لا توجد حرية، بل يوجد رباط شيطاني حيث تسمى حقيقة المرء الخاصة الحقيقة القصوى. فهذه هي محاولة التشبه (بالله)، محاولة تتم باسم (الله).

وهناك الطريق الآخر لتجنب مشكلة الحقيقة - طريق عدم الاكتراث

---

(١٤) هذا بزعمهم فالقرآن الكريم ينفي انتساب إبراهيم عليه السلام لليهود. (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين). (آل عمران / ٦٧) (المترجم).

(١٥) يقصد إنجيل يوحنا (المترجم).

بها، عدم الاهتمام بها. وهذا الطريق هو طريق غالبية الشعوب اليوم وبمثل ما كان في زمن يسوع. وهم يقولون لأنفسهم إن الحياة هي خليط من الحقيقة ونصف الحقيقة والزيف. ومن الممكن العيش مع هذا الخليط للخوض من خلال معظم مصاعب الحياة دون التساؤل عن مشكلة حقيقة تهم بشكل أقصى. ربما توجد مواقف جدّية، حادثة مأساوية، سقوط روحي عميق، موت. ولكن طالما أنه جرى استبعادها بعيداً فإن مشكلة الحقيقة يمكن أيضاً أن تبقى بمنأى. ومن ثم فإن وجهة النظر المشتركة - نأمة بسيطة من نزعة الشك عند بيلاطس وخاصة في الأشياء التي ليست خطرة اليوم بالشك فيها وعلى سبيل المثال (الله) و(المسيح)، ونأمة بسيطة من النزعة القطعية عند اليهودي وخاصة في الأشياء التي تتطلب من المرء قبولها اليوم وعلى سبيل المثال طريق اقتصادي أو سياسي للحياة. بقول آخر، بعضٌ من النزعة الشكية وبعضٌ من النزعة القطعية، ومنهج صارم يحدث توازناً بينهما لتحرير المرء من عبء التساؤل عن مشكلة الحقيقة القصوى.

ولكن أولئك الذين هم من بيننا الذين يجرؤون على مواجهة مشكلة الحقيقة قد ينصتون إلى ما يقوله الإنجيل الرابع عنها. إن أول ما يلفت نظرنا هو أن الحقيقة التي يتحدث عنها يسوع ليست معتقدية بل واقعة ألا وهي أنه (هو) (نفسه): "إنني (أكون) أنا الحقيقة". إن هذه صياغة رائعة للمعنى العادي للحقيقة. إن الأحكام هي إما صادقة أو كاذبة، والناس قد (يملكون) الحقيقة أو لا يملكونها، ولكن كيف يمكن لهم أن (يكونوا) الحقيقة بل وحتى الحقيقة بألف لام التعريف التي هي الحقيقة حقاً؟ إن الحقيقة التي يتحدث عنها الإنجيل الرابع هي واقع جديد - ذلك الواقع الذي لا يخدعنا إذا قبلناه وتعايشنا معه. فإذا كان يسوع يقول: "أنا الحقيقة" فإنه يدل على أن فيه (هو) الحقيقة، وهذه الحقيقة الأصيلة، الحقيقة القصوى حاضرة، أو - بقول آخر - إن (الله) حاضر غير محتجب، غير مشوه، في عمقه اللامتناهي، في سرّه (هو) الإلغازي. إن يسوع ليس الحقيقة لأن تعاليمه حقيقته. بل إن تعاليمه حقيقية لأنها تعبر عن الحقيقة التي هي (هو) (نفسه). إنه (هو) أكثر من كلماته (هو). و(هو) أكثر من أي كلمة تقال غنه (هو). إن الحقيقة التي تجعلنا

أحراراً ليست تعاليم يسوع ولا تعاليم عن يسوع. وإن أولئك الذين سمّوا تعاليم يسوع (الحقيقة) قد أخضعوا الناس لعبودية في ظل القانون. ومعظم الناس يفضلون أن يعيشوا في ظل القانون. وهم يريدون أن يقال لهم ما يجب أن يفكروا فيه وما يجب ألا يفكروا فيه. وهم يتقبلون يسوع على أنه المعلِّم المعصوم ومُعطي الناس ناموساً جديداً. ولكن حتى كلمات يسوع - إذا ما جرى أخذها على أنها ناموس - ليست هي الحقيقة التي تجعلنا أحراراً. ولا يجب استخدامها على هذا النحو من جانب باحثينا ووعاظنا ومُعَلمينا الدينيين. لا يجب استخدامها على أنها مجموعة وصفات لا تخطئ للحياة والفكر. إنهاا (تشير) إلى الحقيقة، ولكنها ليست ناموساً للحقيقة. وأيضاً ليست كذلك العقائد عنه (هو) من أنه الحقيقة التي تحرر. وإنني أقول هذا لكم على نحو ما أن إنساناً قد عمل طوال حياته من أجل تعبير حقيقي عن الحقيقة التي هي (المسيح). ولكن كلما ازداد المرء عملاً أدرك أكثر أن تعبيراتنا، بما في ذلك كل شئ قد تعلمناه من معلمينا ومن تعاليم الكنيسة في كل الأجيال، ليست هي الحقيقة التي تجعلنا أحراراً. في زمن مبكر جداً نسيت الكنيسة كلمة إنجيلنا من أنه (هو) (يكون) الحقيقة، وزعمت أن عقائدها عنه هي الحقيقة. وهذه العقائد مهما تكن ضرورية وحسنة - فقد ثبت أنها ليست الحقيقة التي تحرر. وسرعان ما أصبحت أدوات للقمع، أدوات للعبودية في ظل السلطات، لقد أصبحت وسائل لمنع البحث الأمين عن الحقيقة - أصبحت أسلحة لقسمة نفوس الناس بين الولاء للكنيسة والإخلاص للحقيقة. وبهذه الطريقة كانت أدوات فتّاكة ضد أولئك الذين يهاجمون الكنيسة وعقائدها باسم الحقيقة. وليس كل إنسان يشعر بهذا الصراع. هناك حشود من الناس يشعرون بالأمان في ظل النواميس العقائدية. إنهم آمنون ولكنه أمان ذلك الذي لم يجد بعد حريته الروحية، الذي لم يجد بعد ذاته الحقة. إن ما يشكل مكانة البروتستنتانية وخطرها هو أنها تعرض اتباعها لعدم استقرار التساؤل عن مشكلة الحقيقة لأنفسهم وأنها تقذف بهم في حرية ومسئولية القرارات الشخصية، حرية ومسئولية الحق في الاختيار من بين طرق الشكاك وأولئك الذين هم اورثوذكسيون، بين الحشود التي لا تبالي وبينه (هو) الذي

(يكون) هو الحقيقة التي تحرر. فهنا تكمن عظمة البروتستانية: إنها تشير إلى ما وراء تعاليم يسوع وما وراء عقائد الكنيسة إلى وجوده (هو) والذي وجوده هو الحقيقة.

فكيف نصل إلى هذه الحقيقة؟ "بأن نعملها"، هذا هو الرد الوارد في الإنجيل الرابع. ولا يعني هذا أن نكون مطيعين للوصايا، ونتقبلها ونحققها. أن نعمل الحقيقة يعني أن نعيش من الواقع الذي يكون (هو) ذلك الذي هو الحقيقة، وجعل وجوده (هو) وجود أنفسنا ووجود عالمنا. ومرة أخرى إننا نتساءل: "كيف يمكن أن يحدث هذا؟" "أن نظل فيه (هو)" هذا هو رد الإنجيل الرابع [١٦] أي بالمشاركة في وجوده (هو). "كونوا فيَّ وأنا أكون فيكم" هكذا يقول. إن الحقيقة التي تحرر هي الحقيقة التي فيها نشارك نحن، والتي هي جزء منا ونحن جزء منها. إن النظام الحق هو المشاركة وإذا كان الواقع الحقيقي، الأقصى، الإلهي والذي هو وجوده (هو) يصبح وجودنا فإننا نكون في الحقيقة التي تهم.

ومرة ثالثة إننا نسأل: "كيف يمكن أن يحدث هذا؟" هناك جواب على هذا السؤال في إنجيلنا [١٧] والذي قد يصدمنا صدمة عميقة: "إن كل من يتأتى في الحقيقة يسمع صوتي": "إن التأتي في الحقيقة" يعني التأتي من الحقيقة، من الواقع الأقصى، من التحدد في وجود المرء بالأساس الإلهي لكل الوجود، من خلال ذلك الواقع الحاضر في (المسيح). فإذا كان لنا جانب فيها فإننا نتبينها أينما تظهر، إننا نتبينها وهي تظهر في اكتمالها في (المسيح). ولكن قد يسأل البعض يائساً: "إذا لم يكن لنا (أي) جانب فيها، إذا (لم) نكن من الحقيقة فهل نحن إذن مستبعدون للأبد منها؟ هل يجب أن نتقبل حياة بدون حقيقة، حياة في الخطأ وفقدان المعنى؟ من ذا الذي يقول لي أنني (أنا) من الحقيقة، وأنني (أنا) لدي فرصة للوصول إليها؟ " ما من أحد يمكن أن يخبرك، ولكن يوجد معيار واحد: إذا كنت تسأل السؤال بجدية: "هل أنا من الحقيقة" فإنك

(١٦) إنجيل يوحنا (المترجم).

(١٧) إنجيل يوحنا (المترجم).

(تكون) من الحقيقة. وإذا لم تسأل السؤال بجدية فإنك لا تريد حقاً وأنت لا تستحقها وأنك لا تستطيع أن تحصل على جواب! إن مَن يسأل بجدية سؤال الحقيقة التي تحرر يكون من قبل في طريقه إلى التحرر. ربما لا يزال في قيد اليقين الذاتي القطعي لكنه قد شَرَع في أن يكون متحرراً منه ربما لا يزال في قيد اليأس الحافل بالسخرية لكنه قد شرع من قبل في الانبثاق منه. ربما لا يزال في قيد اللامبالاة بالنسبة للحقيقة التي تهمُّ لكن لا مبالاته تكون قد اهتزت من قبل. هذه هي كلها من الحقيقة وكلها في الطريق إلى الحقيقة.

وعلى هذا الدرب سوف تلتقون بالحقيقة التي تحرر بأشكال عدة فيما عدا شكل واحد. إنكم لن تلتقوا بها أبداً في شكل قضايا يمكن أن تتعلموها أو تسجلوها وتحملونها معكم. ولكنكم قد تواجهونها في عبارة واحدة في كتاب أو في حديث أو في محاضرة أو حتى في موعظة. وهذه الجملة ليست هي الحقيقة ولكنها قد تفتح لكم الطريق إلى الحقيقة وقد تحرركم من القيد إلى الآراء والابتسارات. وفجأة يظهر الواقع الحقيقي مثل سطوع النور في مكان مظلم من قبل. أو على نحو بطئ يظهر الواقع مثل مشهد عندما يبدأ الضباب في الانقشاع تدريجياً وفجأة يختفي. إن حلكة جديدة، إن ضباباً جديداً سوف يخيّم عليكم، ولكنكم عايشتم - على الأقل مرة - الحقيقة والحرية التي تمنحها الحقيقة. أو قد تستولي الحقيقة عليكم في مواجهة مع جانب من الطبيعة - جمالها وطوابعها المتحولة المؤقتة، أو في مواجهة مع إنسان في الصداقة والغربة، في الحب، في التباين والكراهية، أو في مواجهة مع نفسكم في استبصار فجائي في مجاهداتكم الخفية في نفسكم، في الاشمئزاز وحتى في كراهية نفسكم، في التاصلح مع نفسكم وتقبلها. في هذه المواجهات قد تواجهون الواقع الحقيقي - الحقيقة التي تحرر من الأوهام والسلطات المزيفة، تحرر من أشكال القلق والرغبات والعداوات التي تستعبدكم، تحرر من الرفض الذاتي الخاطئ ومن اليقين الذاتي الخاطئ.

بل وقد يحدث حتى أنكم قد تستولي عليكم صورته (هو) أو قوته (هو) ذلك الذي هو الحقيقة. ما من قانون يحتم أن يحدث هذا. إن الكثيرين

في كل الأزمان وفي كل المواضع قد واجهوا الواقع الحقيقي الذي هو فيه (هو) دون أن يعرفوا اسمه (هو) - على نحو ما قاله (هو). إنهم من الحقيقة، وإنهم ليتبينون الحقيقة بالرغم من أنهم لم يروه (هو) مطلقاً ذلك الذي هو الحقيقة. وإن مَن رأوه (هو)، (المسيحيون) في كل الأجيال ليس لديهم أي ضمان بأنهم يشاركون في الحقيقة. وعلى أي حال فإن أولئك الذين هم في الحقيقة والذين واجهوه (هو) الذي هو الحقيقة لديهم شئ نفيس يجاوز الآخرين: إن لديهم نقطة منها يحكمون على الحقيقة كلها التي يواجهونها في كل مكان. إنهم يتطلعون إلى حياة لم تفقد إطلاقاً الارتباط بالأساس الإلهي لكل الحياة، وهم يتطلعون إلى الحياة التي لم تفقد وحدة الحب مع كل الموجودات.

وقد أفضى هذا إلى الكلمة الأخيرة التي كان على الذي كتب الإنجيل ورسائل يوحنا أن يقولها عن الحقيقة: إن الحقيقة التي تحرر هي قوة الحب، ذلك لأن (الله) محبة. إن أب الكذب يربطنا بنفسه بأن يربطنا بأنفسنا - أو يربطنا بما لدينا والذي هو ليس نفسنا الحقة. إن الحب يحرر من أب الكذب لأنه يحررنا من نفسنا الزائفة ويدفعنا إلى نفسنا الحقة - يدفعنا إلى تلك النفس التي تأسست في الواقع الحقيقي. لهذا لا تثقوا بكل مطلب للحقيقة حيث لا ترون الحقيقة متحدة بالحب، وتأكدوا أنكم من الحقيقة وأن الحقيقة استولت عليكم وحسب عندما استولى عليكم الحب وشرع في جعلكم متحررين من أنفسكم.

(٩)

الإيمان واللا يقين

كتب مارتن لوثر في كتابه (عن قيد الإرادة): "أي شئ أكثر تعاسة من اللا يقين". لقد تحدى وجهة النظر شبه الشكاكة لدى خصمه العظيم إراسموس أوف روتردام الذي أعلن أنه يفضل بالأحرى أن يتوجه في التو إلى معسكر الشكاك إذا كانت سلطة (الكتاب المقدس) و(الكنيسة) تسمح له بهذا. إن لوثر يطلب (اليقين) بالنسبة لما يشكّل اهتمامنا الأقصى. إنه يطلب (يقينيات) وليس إمكانيات شكية أو احتمالات أكاديمية. يقول: "استبعدوا اليقينيات وبهذا تستبعدون المسيحية". وهو يقول: ليس من صفات العقل المسيحي أن يتجنب اليقينيات، إن كل كلمة للرسل وكتاب (العهد الجديد) تؤكد وجهة نظره ولا تبرهن على ما يقوله إراسموس. ونحن لا نجد يسوع وبولس ويوحنا يتكلمون في إطار الاحتمالية أو تراكم التجارب أو الخبرات. لقد أدلوا بتأكيدات يقين وثيقة لا تتزعزع عن حقيقة رسالتهم التي غالباً ما تصعب مواجهتها والتي يصعب أكثر فهمها من جانب العقل الحديث. ولقد كتب بولس لأهل غلاطية " ... حتى لو أننا أو ملاك من السماء يعظكم بإنجيل مضاد لما نحن نعظكم به فالعنوه" إننا نشعر بنوع من المقاومة وحتى بالاستياء ضد هذا اليقين الذي لا يتزعزع، والنتيجة المباشرة لهذا هي (اللعنة) ضد المهرطقين. فهل أصبحنا جميعاً من أتباع إراسموس بوعي أو بدون وعي؟ هل نتناول (المسيحية) على أنها مجرد إمكانية أخرى بين إمكانيات عديدة؟ هل على أنها - ربما - احتمالية وليست إطلاقاً يقيناً؟ أليس محيراً لنا جميعاً ما قاله الفيلسوف الألماني كارل بارت مقتفياً (موقف الاصلاحيين): "كلا!" - بدون تصالح - لكل محاولات تناول (الله) في إطار اليقين التقدمي؟ ألم نسمع في كلماته أصوات الطغاة القدامى والمحدثين؟ هل القتال بين بولس وأصحاب نزعة الكمال، بين أغسطين وبين العقليين من أتباع بيلاجيوس [١٨]، بين لوثر وأصحاب النزعة الإنسانية من أتباع إراسموس - هل هذا القتال يتقرر بالتوفيق

(١٨) بيلاجوس (حوالي ٣٦٠ - حوالي ٤٢٠) راهب بريطاني أنكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الإرادة التامة (المترجم).

الذي فيه ينهزم في الواقع بولس وأوغسطين ولوثر؟ إنني لا أتحدث هنا عن هزيمة لاهوتية. إنني أتحدث عن هزيمة في قلوبنا، في حياتنا، في أعماق نفوسنا. أو هل لا يزال في إمكاننا أن ندرك ما يقصده لوثر عندما يصيح: "أي شئ يكون أكثر تعاسة من اللا يقين!".

ولكن دعونا ننظر بدقة أشد في طبيعة ذلك اليقين الذي يدافع عنه بولس ولوثر. إن كلمات بولس تظهر بجلاء أنه ليس اليقين - (الذاتي): " حتى لو (أننا) .. وعظناكم بإنجيل مضاد لذلك الذي نعظكم به .." إن حقيقة الإنجيل الذي يعظ به بولس ليس متوقفاً على بولس. إن اليقين الذي لديه ليس متوقفاً على التغيرات في وجوده الشخصي. إنه يستطيع أن يتخيل أنه في يوم ما يمكن أن يعظ بإنجيل مشوه، بل حتى إنه يمكنه أن يتخيل أن ملاكاً من السماء يمكن أن يحمل رسالة أخرى غير الرسالة التي تلقتها (الكنيسة) من قبل. إنه ليس متأكداً من نفسه، بل إنه حتى ليس متأكداً من الرؤى الملائكية. لكنه متأكد من الإنجيل، إنه متأكد جداً لدرجة أنه يضع نفسه وأكبر القوى روحية تحت تهديد لعنة إلهية إذا كان هو أو هذه القوى سوف تشوه الإنجيل. وهو يواصل كلامه فيقول إن الوعظ بالنسبة للإنجيل الأول [١٩] ليس شيئاً بشرياً، ما من أحد وضعه في رأسي. أنا، لست بعد أنا، إنجيلي ومع هذا ليس إنجيلي بعد، يقيني وليس يقيني أنا بعد. هذا هو وصف حالنا أمام (الله) والذي يسري طوال (الإنجيل) واعترافات كل الشهود المسيحيين العظام. إنه (يكون) يقيننا، لكنه يضيع في اللحظة التي نشرع فيها في اعتباره على أنه يقيننا. إننا على يقين وحسب طالما أننا طالما نتطلع إلى محتوى يقيننا وليس إلى تجاربنا العقلية أو اللا عقلية التي تلقيناها منها. ونحن، ونحن نتطلع إلى أنفسنا ويقيننا على أنه يقيننا (نحن) إنما نكتشف ضعفه، نكتشف قابليته للانجراح بالنسبة لكل فكرة نقدية، إننا نكتشف القدر الضئيل من الاحتمالية الذي يمكن أن يمنحنا إياه عقلنا لفكرة (الله) ولواقع (المسيح) إننا نكتشف التناقضات في الجانب الانفعالي من حياتنا الدينية، نكتشف التأرجح بين الثقة القائمة على

(١٩) يقصد إنجيل متى (المترجم).

الوجد و الشك الحافل باليأس. ولكننا نحن نتطلع إلى (الله) ندرك أن كل نواقص تجاربنا ليست لها أي أهمية. إننا ونحن نتطلع إلى (الله) نرى أنه (هو) ليس لدينا كموضوع لمعرفتنا، بل إننا لديه (هو) موضوع لوجودنا. ونحن نتطلع إلى (الله) نشعر بأننا لا نستطيع أن نهرب منه (هو) حتى لو جعلناه (هو) موضع مجادلات شكية أو انفعالات لا يمكن مقاومتها. إننا ندرك أنه في لا يقيننا هناك نقطة ثابتة واحدة من اليقين مهما يكن ما نطلقه من تسمية عليها ووصفها وتفسيرها. إننا قد لا نستوعب ولكننا (نكون) مُستَوعبين قد لا نستولي على أي شئ في عمق يقيننا، ولكنَّ شيئاً ما أقصى يستولي علينا والذي يبقينا في قبضته ومنه قد نسعى عبثاً إلى الهرب ونبقى متيقنين على نحو مطلق.

وبهذا المعنى يتحدث لوثر عن اليقين (المسيحي). ولقد كتب: "إنني أقصد باليقين التمسك الدائم، التأكيد الدائم، الدفاع الدائم والإدراك الذي لا يتزعزع". وهذا اليقين ليس شيئاً يمتلكه على أنه يقينه هو الخاص. وما من مخلوق عايش عمق الشك على نحو أكبر مما عايشه هو. إن اللجوء إلى السلطان [٢٠] الذي أخذ به نهائياً كلا أوغسطين وأراسموس جعله لوثر مستحيلاً. وهكذا كان الأمر بالنسبة لكل المجالات الممكنة عن الحقيقة الدينية وكل اليقين في رسالته الروحية كمصلح، في قوته الدينية وفي تجربته المتراكمة. وكل هذه الأمور ليس لها حسبان في اللا يقين الأقصى. ولكن أحياناً، في أسوأ أشكال الجحيم هذا طرأت الوصية الأولى "أنا (السيد)، أنا ربكم (أنتم)" على عقله، عرف أنه ما من يقين واحد قد فارقه، وأن هذا وحده هو الشئ الأقصى الذي نحتاجه.

فهل يمكننا أن نتمسك ونستبقي هذا اليقين بالرغم من اللا يقينيات الأساسية التي هي طابع عصرنا في الدين وكذلك في كل أنحاء الحياة؟ هل يمكن أن نتمسك به بالرغم من شكوكنا الشخصية وأشكال اليأس في تراثنا الشكي؟ والجواب على هذه الأسئلة لا يتوقف علينا. نستطيع أن نتحصل على يقين (المصلحين) و(الأناجيل) عندما تُعطى لنا لمسة

---

(٢٠) حافظنا على ترجمة كلمة autority بالسلطان بدل السلطة تمشياً مع الترجمة العربية للكتاب المقدس (المترجم).

(أساس) وجودنا ونتطلع إلى ما وراء أنفسنا. وعندما نخلّف وراءنا كل الممكنات الموضوعية عن (الله) و(المسيح) وكل المقاربات الذاتية (لله) و(المسيح)، وعندما تختفي كل اليقينيات الأولية، فإن اليقين الأقصى قد يظهر لنا. وفي قوة هذا اليقين، وإن كان بلا ضمان إطلاقاً، وإن كان بلا إغراء إطلاقاً، يمكننا أن نسير من يقين إلى يقين [٢١].

(٢١) يقول الصوفي أبو يعقوب النهرورجي: إن الصوفي ينتقل من يقين إلى يقين إلى يقين حتى يصير اليقين وطنا (المترجم).

(١٠)

بأي سلطان..؟

[1]وَفِي أَحَدِ تِلْكَ الأَيَّامِ إِذْ كَانَ يُعَلِّمُ الشَّعْبَ فِي الْهَيْكَلِ وَيُبَشِّرُ وَقَفَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ مَعَ الشُّيُوخِ [2]وَقَالُوا لَهُ: «قُلْ لَنَا بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هَذَا أَوْ مَنْ هُوَ الَّذِي أَعْطَاكَ هَذَا السُّلْطَانَ؟» [3]فَأَجَابَ: «وَأَنَا أَيْضاً أَسْأَلُكُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً فَقُولُوا لِي: [4]مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا مِنَ السَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟» [5]فَتَآمَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ قَائِلِينَ: «إِنْ قُلْنَا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ [6]وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ النَّاسِ فَجَمِيعُ الشَّعْبِ يَرْجُمُونَنَا لأَنَّهُمْ وَاثِقُونَ بِأَنَّ يُوحَنَّا نَبِيٌّ». [7]فَأَجَابُوا أَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ. [8]فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا». (لوقا ٢٠: ١- ٨)

إن القصة التي قرأناها كانت هامة جداً للمسيحيين الأوائل الذين حفظوها لنا. فإذا نظرنا إليها على نحو ظاهري فإننا لا نجد داعياً يبرر مثل هذا التقييم العالي: لقد حاول القادة اليهود أن ينصبوا فخاً ليسوع بسؤال عنيف، ويسوع اصطادهم حتى بسؤال أشد عنفاً. إنها نادرة لطيفة. ولكن أليست هي أكثر من هذا؟ وفي الحقيقة إن الأمر أكثر من هذا على نحو لا متناه. إن الأمر يُحدِثُ شيئاً مدهشاً: إنه يرد على السؤال الأساسي لدين الوحي بألا يرد عليه. إن جواباً عن مسألة السلطة مرفوض من جانب (يسوع)، لكن الطريقة التي بها يرفض (هو) الجواب (تكون) هي الجواب.

دعونا نتخيل أنه (هو) قد أجاب على سؤال الزعماء الدينيين عن سلطانه (هو) بأن يسألهم عن مصادر سطانهم (هم)! كانوا سيردون بسهولة وباقتناع. كان يمكن لرؤساء الكهنة أن يقولوا: "إن مصدر سلطاننا هو تكريسنا وفق تراث يرتد دون انقطاع إلى موسى وهارون. إن التراث المقدس الذي نحن فيه حلقة من الماضي إلى المستقبل يعطينا سلطاننا".

وكان الكتبة سيردون: "إن مصدر سلطاننا هو معرفتنا - ربما يجاوز أي مخلوق آخر - بالكتب المقدسة. لقد درسناها نهاراً وليلاً منذ طفولتنا

المبكرة، كما يجب أن يفعل تلميذ (بكلمة) (الرب). ولما كنا خبراء في تفسير الكتب المقدسة فإن لدينا السلطان".

ولقد كان الناس الأكبر سناً سيقولون ليسوع: "إن مصدر سلطتنا هو تحصيلنا للحكمة طوال عدة سنوات، وتجربتنا في تطبيقها على مسائل اليوم. إن حكمتنا وتجربتنا تعطياننا سلطاننا".

وهم جميعاً كانوا سيقولون ليسوع: "ولكن من أنت وأنت لم تكرس وتدرس الكتب المقدسة وليست معك حكمة السن وتجربة الممارسة؟ فما هو مصدر سلطانك؟ إنك لم تكتف بالتدريس والوعظ، فلقد تصرفت أيضاً كإنسان متطرف دون موافقتنا. لقد طردت من المعبد كل من باع واشترى، لقد قلبت موائد الصيارفة ومقاعد الذين باعوا الحمام وأنت تعرف نفسك أن هذه الأمور لازمة للحفاظ على المعبد وطقوسه، ومن أجل أداء الأضحيات! بأي سلطة انقلبت ضد الدين على نحو ما أعطانا إياه موسى وكل الأجيال منذ ذياك الوقت؟"

هكذا كانوا سوف يجيبون على تساؤله (هو). لكن يسوع لم يسألهم هذا السؤال. لقد سأل: "هل تعميد يوحنا من السماء أم من الناس؟" وبالنسبة لهذا السؤال لم يستطيعوا أن يردوا. فلو كانوا قد قالوا إن التعميد من الناس لكانوا قد أضرّوا الشعور الشعبي بل وربما أضرّوا الشعور داخل الفهم من أن يوحنا كان نبياً. ولكن لو كانوا قد قالوا أنه من (الله) لكانوا قد أسسوا سلطاناً يتجاوز السلطان التالي الذي زعموه لأنفسهم. وهذا لم يرغبوا فيه. و(هُم) أولئك الذين يُسَمَّون السلطات طالبوا بأن كل سلطان أن يُخَوَّلَ (لَهُمْ). لهذا لم يتقبلوا يوحنا كنبي ولا (يسوع) على أنه (المسيح). ولا يجب أن تقللوا من جدية هذا الصراع. ليس الأمر ببساطة صراعاً بين الخير والشر، بين الإيمان وعدم الإيمان. لقد كان الصراع أكثر عمقاً وأكثر مأساوية من هذا!

ودعونا نتخيل أننا نحن أنفسنا كنا في مكان أولئك الذين سألوا يسوع عن مصدر سلطانه (هو). دعونا نتخيل أنفسنا على أننا حراس تراث ديني عظيم أو أننا خبراء ليسوا موضع شك في مجال له أهمية حاسمة

بالنسبة للوجود الإنساني، أو كأناس تعلموا من خلال خبرة طويلة أن يتناولوا مسائل لها أقصى قيمة. ودعونا أيضاً نفترض أنه ليست لنا أي وظيفة كأصحاب سلطان شرعي، ثم جاء شخص ما وتحدث عن نفس الأشياء بلغة مختلفة تماماً وتصرف في مجال سلطاننا بطريقة متطرفة تماماً، فكيف سيكون رد فعلنا (نحن)؟ وإذا كان الناس الذين رأوا وسمعوا هذا الإنسان قالوا عنه ما قالوه عن يسوع على أنه يُعَلِم على أنه إنسان له سلطان وليس مثلنا نحن أصحاب السلطان الراسخ، فكيف سيكون ردنا (نحن)؟ ألن نفكر: إنه يشوش الجماهير، إنه ينشر عقائد خطرة، إنه يقوض القوانين والمؤسسات التي ترسخت حقاً، وأوجد أنماطاً غريبة من الحياة والفكر، ويمزق الروابط المقدسة، وهو يحطم أشكال التراث التي تلقت منها أجيال من الناس النظام والقوة والأمل؟ إن واجبنا هو أن نقاومه إذا أمكن إزاحته! فمن أجل شعبنا يجب علينا أن ندافع عن سلطاننا الراسخ والذي جربناه واختبرناه ضد هذا الإنسان الذي لا يستطيع أن يُظِهر مصدر السلطان الذي يزعمه. فهل سيُوَجَّه لنا اللوم على مثل رد فعلنا هذا؟ وإذا لم يُوَجَّه إلينا اللوم فهل نستطيع أن نلوم أصحاب السلطان في القدس على رد فعلهم على يسوع؟

إننا نفكر في حركة الإصلاح. هذه كانت لحظة في تاريخ الكنيسة حيث أن مسألة السلطان كانت مرة أخرى هي لب الأحداث وإن لوثر، وبالتالي كل العالم البروتستنتي، انفلت من الكنيسة الرومانية ومن ١٥٠٠ عام من التراث المسيحي عندما لم يكن هناك أي اتفاق بشأن سلطان البابا والمجالس يمكن التوصل إليه. وهنا - مرة أخرى - ظهر إنسان ما تحدث وتصرف بسلطان مصادره ما كان لها أن تتحدد بطرق شرعية. وهنا أيضاً يجب أن نسأل: "هل أصحاب السلطان الكاثوليك الذين رفضوه باسم سلطانهم الراسخ يمكن أن يُلاموا على هذا؟" ولكن إذا نحن لم (نلمهم) فإننا نستطيع أن نسألهم: "لماذا تلومون (أنتم) أصحاب السلطان اليهود الذين فعلوا نفس الأمر بالضبط كما فعلتم عندما قال الناس عن (الإصلاحيين) أنهم يتحدثون بسلطان وليس مثل القسوس والكهنة؟". هل الشئ نفسه مختلف تماماً إذا تم على يد

حَبْر كبير يهودي وإذا ما تم على يد قسيس كبير روماني؟ ويمكن للمرء أن يسأل أصحاب السلطان البروتستنتي اليوم في أوربا وفي الولايات المتحدة الأمريكية: "هل أنتم على يقين أن الإصرار على سلطانكم، على تراثكم، وتجربتكم لن يخمد نوع السلطان الذي كان في ذهن يسوع؟"

والآن إننا نسأل: "ماذا يعني السلطان؟ ماذا يعني بالنسبة للإنسان كإنسان؟ ماذا يعني بالنسبة لزماننا ولكل منا؟"

أولاً وقبل كل شئ إنه يعني أننا متناهون وأننا في حاجة إلى ماذا تقوله بالضبط كلمة (سلطان) حقاً: أن ننطلق وأن نزداد. إنها تعني أننا قد وُلدنا وأننا كنا أطفالاً وأولاداً، وأننا كنا معتمدين اعتماداً كاملاً على أولئك الذين أعطونا الحياة والبيت والهدى ومحتويات للنفس والعقل. إننا لم نكن قادرين على أن نقرر بأنفسنا لعدة سنوات، وهذا جعلنا معتمدين على السلطان وجعل السلطان مفيداً لنا. ونحن تقبلنا هذا السلطان دون مقاومة حتى لو تمردنا في مناسبات خاصة. وهذا السلطان أصبح أساس كل أشكال السلطان الأخرى. إن هذا أعطى قوة لسلطان الأخ الأكبر أو الأخت الأكبر أو الصديق أو المدرس الأكثر نضجاً والموظف الأكبر والحاكم الأكبر والوزير الأكبر. ومن خلالهم تم إدراجنا في المؤسسات والتقاليد في المجتمع، في الدولة والكنيسة. إن السلطان يتوسطنا ويرشدنا ويشكل حياتنا. وإن قبول السلطان هو تقبل ما تم اعطاؤه من جانب أولئك الذين لديهم أكثر مما لدينا. وإن خضوعنا لهم ولما يمثلونه يمكننا من أن نحيا في التاريخ، بمثل ما أن خضوعنا لقوانين الطبيعة يمكننا من أن نعيش في الطبيعة. ومن سلطان القانون يجري اشتقاق سلطان أولئك الذين يمثلونه ويريدونه والذين يُسَمَّون لهاذ السبب (أصحاب السلطان).

إن حياتنا اليومية ستكون مستحيلة بدون التقاليد الخاصة بالسلوك والعادات وسلطان أولئك الذين تلقوها وأسلموها لنا. وسيطرة الإنسان على الطبيعة كانت ستكون مستحيلة بدون تراث المعرفة والمهارة الذي يتدرج فيه كل جيل والذي يعطي سلطاناً لأولئك القادرين على

يقدموننا. وإن حياة الإنسان العقلية - اللغة التي يستخدمها والأغنيات التي يتغنى بها والموسيقى التي يعزفها والبيوت التي يبنيها والصور التي يرسمها والرموز التي يبدعها - قد تلقاها من خلال سلطان أولئك الذين شاركوا فيها قبله. وحياة الإنسان الدينية الإيمان الذي يتمسك به، العبادة التي يحبها، القصص والحكايات الخرافية التي سمعها والأوامر التي يحاول أن يطيعها والنصوص التي يعرفها عن ظهر قلب - كل هذا هو لم يخلقها، إنه يأخذها من أولئك الذين يقدمون له السلطان الديني.

وإذا ما تمرد ضد أشكال السلطان التي شكلته فإنه يفعل هذا بأدوات هو قد تلقاها منهم. إن لغة الثوري قد تشكلت من جانب أولئك الذين يتمرد ضدهم. واحتجاج المصلح يستخدم التراث عندما يحتج عليه. لهذا ما من ثورة مطلقة ممكنة إنها تحاول، إنها تفشل في التو، وإذا ما نجحت ثورة فإن قادتها سرعان ما يستخدمون أشكالاً وأفكاراً أوجدتها أشكال سلطان الماضي. وهذا صادق عن تمرد المراهق ضد سلطان الأسرة وكذلك تمرد الجماعات الاجتماعية الجديدة ضد سلطان القوى الراسخة.

وعندما نتحدث عن التناهي الإنساني عادة ما نفكر في وضع الإنسان المؤقت عبر الزمن وعن مولده ووفاته وعن التقلبات التي تهدده في كل لحظة. ولكننا لسنا متناهين فحسب في أننا زمانيون، فإننا متناهون أيضاً في اننا تاريخيون وهذا يعني الخضوع للسلطان، حتى لو تمردنا ضده. لقد قُذِفَ بنا إلى الوجود لا جسدياً فحسب بل عقلياً أيضاً. ما من مجال نكون فيه من ذواتنا، ما من لحظة نكون فيها أنفسنا. ومن يحاول أن يكون بلا سلطان يحاول أن يكون أشبه بالله الذي هو وحده بذاته (هو). وهو مثل كل إنسان يحاول أن يتشبه بالله يُقذف به إلى الدمار الذاتي، سواء كان هذا إنساناً مفرداً أو أمة أو حقبة من التاريخ كما يحدث لنا.

وفي قصتنا فإن يسوع مثل خصومه (هو) يُقِرُّ بالسلطان. إنهم يناضلون من أجل سلطان (صادق)، وليس من أجل السلطان كسلطان.

وهذا هو ما نجده في كل موضع في (الإنجيل) وحياة (الكنيسة). لقد حارب بولس التلاميذ الأصليين بما في ذلك بطرس عن أساس السلطان الرسولي. لقد حارب الأساقفة مع المتحمسين ما يتعلق بالزعامة في (الكنيسة). لقد حارب البابوات الأمراء بشأن المصدر الأقصى للسلطان السياسي. والمصلحون حاربوا زعماء الكهنة بشأن تفسير (الإنجيل). واللاهوتيون حاربوا العلماء بشأن معيار الحقيقة القصوى وما من جماعات مناضلة تنكر السلطان، ولكنَّ كلا منها ينكر سلطان الجماعة الأخرى.

ولكن إذا كان السلطان منقسماً في ذاته، فأي سلطان هو الذي يقرر؟ أليس في السلطان المنقسم نهاية للسلطان؟ أليس الانقسام الذي أحدثته حركة الإصلاح نهاية سلطان الكنيسة؟ أليس الانقسام بالنسبة لتفسير (الإنجيل) نهاية السلطان الإنجيلي؟ أليس الانقسام بين اللاهوتيين والعلماء نهاية السلطان الثقافي؟ أليس الانقسام بين الأب والأم نهاية السلطان الأبوي؟ أليس الانقسام بين الآلهة في الشر أو تعدد الآلهة نهاية سلطانها الأبدي؟ أليس الانقسام في ضمير المرء نهاية سلطان ضمير المرء؟ وإذا كان على المرء أن يختار بين أشكال السلطان المختلفة، ليس (هم) ولكنه المرء هو السلطان الأقصى لذاته، وهذا يعني: لا يوجد سلطان له.

وعلى أي حال فإن هذا يخلق الاختبار المخيف لحقبتنا التاريخية الخاصة بنا (نحن). فإذا لم يكن هناك أي سلطان، فإن علينا أن نقرر كل منا لنفسه. وعلينا كذوات متناهية أن نتصرف كما لو كنا لا متناهين، ولما كان هذا مستحيلاً فإننا مدفوعون إلى عدم الأمان الكامل، مدفوعون إلى القلق، مدفوعون إلى اليأس. أو ونحن عاجزون إزاء عزلة التقرير لأنفسنا، نكبت حقيقة أن هناك سلطاناً منقسماً. إننا نُخضع أنفسنا لسلطان محدد ونغلق أعيننا ضد المطالب الأخرى جميعاً. إن رغبة معظم الناس لعمل هذا معروف تماماً لدى أولئك الذين هم في السلطة. إنهم يستخدمون عدم الرغبة وعدم الإرادة عند البشر ليقرروا لأنفسهم لكي يحتفظوا بقوتهم وزيادتها. وهذا حق بالنسبة للقوى الدينية كما هو حق

بالسنبة للقوى السياسية. وعلى هذا الأساس الخاص بالضعف الإنساني تتبني أنساق السلطان في الماضي والحاضر.

"بأي سلطان" تفعلون هذا؟ هكذا تساءل يسوع. ولقد رد (هو) لا بالإدلاء بجواب بل بالإشارة إلى عمل وقول يوحنا. وهنا فإنه يقول لزعماء أمته (هو) إنكم تشاهدون انبعاث سلطان بدون أساس طقوسي أو تشريعي ولكنكم تنكرون إمكانية هذا. ومن ثم فإنكم تنكرون كلا (المعمداني) ونفسي. إنكم تنكرون إمكانية سلطان ضامنه قوته الباطنية. لقد نسيتم أن الاختبار الوحيد عند الأنبياء هو قوة ما يقولونه. انصتوا لما يقوله (الناس) عنا ألا وهو أننا (نحن) نتكلم بسلطان وليس مثلكم (أنتم) الذين تُسَمَّون (أصحاب السلطان). هذا هو ما يقوله (هو) لهم.

فماذا يقول (هو) لنا؟ إنه لن يحارب من أجل سلطانه (هو) مع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ عصرنا. وفي عصرنا فإنهم جميعاً يعترفون به (هو). إنه كان سيسأل سؤالاً مختلفاً عنهم. كان سيسأل: "ما هي طبيعة سلطاني (أنا) بالنسبة لكم؟ هل هو مثل سلطان يوحنا المعمداني أم أنه مثل سلطان من أشكال السلطان التي حاولت إزاحتي؟ هل وضعتم كلمات أولئك الذين شاهدوني، (الإنجيل)، (آباء الكنيسة)، البابوات، المصلحون، العقائد، في أشكال قصوى للسلطان؟ هل فعلتم هذا باسمي؟ وإذا كان الأمر هكذا ألم تسيئوا استغلال اسمي؟ فأينما يجري تذكر اسمي يجري تذكر قتالي ضد أولئك الذين كانوا يملكون السلطة".

هناك شئ في الديانة المسيحية معارضة للسلطان القائم. هناك شئ في التجربة المسيحية يتمرد ضد الخضوع حتى لأشد تجارب الماضي عظمة وقداسة. وهذا الشئ وارد في تساؤل يسوع: "هلَ تعميد يوحنا من (الله) أم من الإنسان؟" وهو وارد في رفضه (هو) أن يدلي بجواب! إن ما يجعل التساؤل تستحيل الإجابة عنه هو طبيعة السلطان المستمدة من (الله) وليس من الإنسان. إن الموضع الذي يعطي فيه (الله) السلطان لإنسان لا يمكن أن يتحدد. لا يمكن أن يُحَدَّد على نحو قانوني. إنه لا يمكن وصفه داخل أسوار العقائد والطقوس الدينية. إنه هنا، وأنتم لا تعرفون من أين جاء. أنتم لا يمكن أن تستخلصوه. يجب أن يستحوذ

هو عليكم. إنكم يجب أن تشاركوا في قوته. وهذا هو السبب الذي يجعل التساؤل عن السلطان أن لا يحصل على جواب أقصى على الإطلاق. من المؤكد وجود أجوبة أولية عديدة. ما من يوم في حياتنا إلا وندلي فيه - صمتاً أو جهرةً - أجوبة على السؤال عن السلطان فنقول في الأغلب (نعم) ونقول أحياناً (لا).

لكن الجواب الأقصى هو الذي لا نستطيع أن ندلي به. كل ما هنالك أننا نستطيع أن نشير إلى واقع على نحو ما يفعل يسوع. وهذا ما يستطيع أن يفعله زعماؤنا الدنيويون ويجب أن يفعلوه - الكنائس والكهنة واللاهوتيون وكل مسيحي يتصرف باعتباره كاهناً للمسيحيين الآخرين. إنهم جميعاً يستطيعون أن يرفعوا أصبعهم كما فعل يسوع ليوحنا، وكما فعل يوحنا ليسوع. إننا جميعاً نستطيع أن نشير على نحو عاطفي، وليس كأشكال راسخة للسلطان إلى (المصلوب) - كما يفعل (المعمداني) في اللوحة الرائعة التي رسمها الفنان القديم ماتياس جرونفالد [٢٢]. إننا نرى كل وجوده في الأصبع الذي يشير به إلى (الصليب). وهذا هو الرمز الأكبر الذي أعرفه عن السلطان الحقيقي (للكنيسة) و(الإنجيل). لا يجب الإشارة إلى أنفسهم بل إلى الواقع الذي انبثق مراراً وتكراراً من خلال الأشكال الراسخة للسلطة ومن خلال مئات الأشكال لتجاربنا الشخصية.

ومرة أخرى نحن نسأل: "ماذا يعني أن التساؤل عن السلطة لا يستطيع أن يحظى بجواب أقصى؟". إن الأمر سيبدو وكأنه تجديف إذا قلت: "لأن (الله) نفسه لا يقدر أن يعطي جواباً". والأمر لن يبدو تجديفاً بل سيبدو أمراً اعتقادياً إذا قلت "لأن (الله) هو (روح)". ومع هذا فالجملتان سواء لهما نفس المعنى. إن (الله) الذي هو (روح) لا يستطيع أن يعطي جواباً أقصى على سؤال السلطان. والكنائس وزعماؤها وأعضاؤها غالباً ما يتجاهلون الدلالة اللا متناهية للكلمات "(الله) هو (روح)" لكن العيون الحادة لأعداء ترى ما تعنيه هذه الكلمات. إن نيتشه سمى الإنسان الذي أول من قال إن (الله) هو (روح) هو الإنسان الأول من بين أولئك الذين قد قتلوا (الله).

إن بصيرته العميقة في النفس الإنسانية أكدت له أن (الله) الذي لا يوصف على نحو محدد والذي لا يجيب على نحو محدد عن سؤال السلطان لا يمكن أن يتقبله غالبية البشر. فلو كان على حق فإما أن نتفق معه على أنه ما من إله غيره، أو علينا أن نعود إلى (إله) يدلي لنا بجواب محدد على سؤال السلطان ويخضعنا بالنظام (الإلهي) لسلطان ديني مؤسس على أنه الممثل الأرضي لسلطانه هو السماوي. لكن هذا الله ليس هو (الله) الذي هو (روح). فممثل هذا (الله) بالفعل هو الصورة السماوية للسلطان الأرضي الذي يستخدمونه (هو) لتكريس قوتهم هم. إن هذا (الله) ليس (الله) الذي يتحدث عنه يسوع في قصتنا.

إن (الله) الذي لا يستطيع أن يجيب عن سؤال السلطان الأقصى لأنه (هو) هو (الروح) لا يزيح أشكال السلطان الأولية التي نحيا معها حياتنا اليومية. إنه لا يديننا على خواء شاب يافع يشعر بأن العالم يجب أن نبدأ به. إنه لا يحرمنا من حماية أولئك الذين لديهم حكمة وقوة أكبر منا. إنه لا يعزلنا عن الجماعة التي ننتمي إليها والتي هي جزء من أنفسنا. لكنه يرفض الدلالة القصوى لأشكال السلطان الأولية كلها، لكل أولئك الذين يزعمون أنهم على صورة سلطانه (هو) والذين يشوهون سلطان الله ويجعلونها قوة اضطهاد لطاغية سماوي.

إن (الله) الذي لا يجيب عن سؤال السلطة القصوى يحول أشكال السلطان الأولية إلى آلة وأدوات (لنفسه) - آلات وأدوات (لله) الذي هو (الروح). والسلطان الأبوي على الأرض ليس صورة طبق الأصل من سلطان أبوي في السماء، بل هو أقدم أداة فيها الصفات (الروحية) للنظام والسيطرة الذاتية والحب توسطت لنا. لهذا فإن الآباء يجب عليهم وعليهم أيضاً أن يظلوا ذواتاً للشرف وليس للسلطان المطلق غير المشروط. وحتى (الله) الذي نسميه (الآب) في السماء لا يستطيع أن يجيب على سؤال السلطان. فكيف يستطيع الآباء أن يجيبوا؟

إن سلطان الحكمة والمعرفة على الأرض ليس صورة مكرسة طبق الأصل لسلطة هيمنة سماوية، بل هذا السلطان هو أداة من خلالها تتوسط لنا الصفات (الروحية) للتواضع والمعرفة والحكمة. لهذا فإن

الحكماء يجب تكريمهم وليس تقبلهم كأشكال مطلقة للسلطان.

إن أشكال السلطان في الجماعة والمجتمع، في الأمة والدولة، ليست صوراً طبق الأصل للقوة والعدالة السماويين، بل هي أدوات من خلالها يمكن أن تتوسط لنا الصفات الروحية للتشارك المتبادل والفهم والصوابية والشجاعة. ولهذا فإن أشكال السلطان الاجتماعية يجب تقبلها على أنها ضمانات للنظام الخارجي وليس كأشكال للسلطان تحدد معنى حياتنا.

وسلطان (الكنيسة) ليس هو التكريس طبق الأصل للصورة الأرضية (للحاكم السماوي) (للكنيسة)، بل إنه هو الوسيط الذي من خلاله يجري الحفاظ على الجوهر (الروحي) لحياتنا وحمايته وإعادة ولادته.

وحتى سلطان يسوع (المسيح) ليس هو الصورة المكرسة طبق الأصل للإنسان الذي يحكم على أنه طاغية، بل هو سلطان ذلك الذي أفرغ نفسه من كل سلطان، إنه سلطان الإنسان الذي على (الصليب). إن الأمر سواء إذا قلتم إن (الله) هو (الروح) وأنه (هو) المتجلي على الصليب.

وأنتم يامن تحاربون (ضد) أشكال السلطان وأنتم يامن تبحثون (عن) أشكال السلطان، أنصتوا للقصة التي حارب فيها يسوع ضدها وأسس سلطاناً لا يمكن تأسيسه ! هنا نجد جواباً ألا وهو ما من جواب يمكن الإدلاء به سوى الجواب بأنه وراء كل أشكال السلطان الأولية يجب أن تبقوا أنفسكم منفتحين لقوته (هو) الذي هو الأساس والنفي لكل شئ يكون سلطاناً على الأرض وفي (السماء).

(١١)

هل جاء المسيح..؟

٢٥وَكَانَ رَجُلٌ فِي أُورُشَلِيمَ اسْمُهُ سِمْعَانُ كَانَ بَارّاً تَقِيّاً يَنْتَظِرُ تَعْزِيَةَ إِسْرَائِيلَ وَالرُّوحُ الْقُدُسُ كَانَ عَلَيْهِ. ٢٦وَكَانَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ أَنَّهُ لاَ يَرَى الْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى مَسِيحَ الرَّبِّ. ٢٧فَأَتَى بِالرُّوحِ إِلَى الْهَيْكَلِ. وَعِنْدَمَا دَخَلَ بِالصَّبِيِّ يَسُوعَ أَبَوَاهُ لِيَصْنَعَا لَهُ حَسَبَ عَادَةِ النَّامُوسِ ٢٨أَخَذَهُ عَلَى ذِرَاعَيْهِ وَبَارَكَ اللهَ وَقَالَ: ٢٩«الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ ٣٠لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ ٣١الَّذِي أَعْدَدْتَهُ قُدَّامَ وَجْهِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. ٣٢نُورَ إِعْلاَنٍ لِلأُمَمِ وَمَجْداً لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ». (لوقا٢: ٢٥- ٣١)

٢٣وَالْتَفَتَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ عَلَى انْفِرَادٍ وَقَالَ: «طُوبَى لِلْعُيُونِ الَّتِي تَنْظُرُ مَا تَنْظُرُونَهُ ٢٤لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ وَمُلُوكاً أَرَادُوا أَنْ يَنْظُرُوا مَا أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَلَمْ يَنْظُرُوا وَأَنْ يَسْمَعُوا مَا أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَمْ يَسْمَعُوا».

(لوقا ١٠: ٢٣- ٢٤)

منذ أيام قليلة تحدثت إلى صديق يهودي عن فكرة (المسيح) في (اليهودية) و(المسيحية). وأخيراً قرر أن الاختلاف هو بشكل مماثل للبديل الذي طرح أمام يسوع من تلاميذ يوحنا المعمدان: "هل أنت الآتي؟ أم علينا أن ننتظر للخارج لشخص آخر؟" ولقد اتفقنا على أن اليهود إنما ينتظرون شخصاً آخر بينما يؤكد المسيحيون أن "القادم" قد أتى من قبل. إن المسيحيين يقولون مع سِمعَان: "إن عيوننا (قد) رأت خلاصه (هو)". واليهود يردون "إننا (لم) نر خلاصه (هو)، ونحن في انتظاره". إن المسحيين يشعرون بأنهم مباركون حسب كلام يسوع لأنهم قد رأوا مثول القوة المُخَلِّصَة داخل العالم والتاريخ. واليهود يعتبرون مثل هذا الشعور هو يكاد يصل إلى حد التجديف نظراً - وفق إيمانهم - لأنه لا شئ مما يتوقعون حدوثه في العصر (المسيحي) قد حدث بالفعل. وعندما ندافع عن إيماننا المسيحي يشيرون إلى واقعة أن العالم لم يصبح أفضل منذ أيام يوشع وإرميا من أن اليهود - ومعهم

الجانب الأكبر من البشرية - يعانون على نحو لا يقل عما حدث منذ ألفي عام، وأن الرؤى الرسولية بيوم الحساب أو الدينونة هي أكثر واقعية عما كانت في تلك الأيام. ويصعب الرد على هذا، ولكن (يجب) علينا أن نرد على هذا لا لليهود فحسب بل أيضاً للمسيحيين وغير المسيحيين الذين لا يمكن عدّهم، لأصدقائنا وأطفالنا، وإن شيئاً ما في نفوسنا يطرح هذه الأسئلة.

إنه يصعب الرد عليهم. وعلى سبيل المثال بماذا (يمكننا) أن نرد عندما يتساءل أطفالنا عن الطفل الذي لا منه ولا كفاية شره بينما في بعض أنحاء العالم نجد أن جميع الأطفال "بدءاً من عامين وأقل قد ماتوا أو يموتون، لا بأمر من هيرودس [٢٣] بل بالقسوة المتزايدة من جراء الحرب ونتائجها في الحقبة المسيحية ومن جراء تناقل قوة التخيل في الناس المسيحيين. أو بماذا يمكننا أن نرد على اليهود عندما بقايا الشعب اليهودي وهم عائدون من معسكرات الموت على نحو أسوأ من أي شئ في بابل لا يجدون مستقراً في أي مكان على سطح الأرض، ومن المؤكد ليس بين الأمم المسيحية العظيمة؟ أو بماذا يمكننا أن نرد على المسيحيين وغير المسيحيين الذين أدركوا أن ثمرة قرون من الحضارة التقنية والاجتماعية المسيحية هي تهديد كبير للتدمير الذاتي الكامل والكلي للبشرية؟ وبأي إجابة يمكننا أن ندلي بها لأنفسنا عندما نتطلع إلي مرحلة لا مداواة فيها ولا إنقاذ لحياتنا بعد أن نجد رسالة المداواة والخلاص قد أصبحت صعبة في كل عيد من أعياد الميلاد لحوالي ألفي عام؟

هل علينا أن نقول إن (العالم) - بطبيعة الحال - لم يجر إنقاذه ولكنَّ هناك رجالاً ونساء في كل الأجيال جرى إنقاذهم (مِن) العالم؟ ولكن ليست هذه هي رسالة عيد الميلاد. إن كل من هُم في الأسطورة الخاصة بعيد الميلاد الذين يتوقعون (المسيح) ويتلقون ما هو إلهي إنما يتطلعون إلى خلاص إسرائيل وخلاص غير اليهود وكل العالم. فبالنسبة لهم

(٢٣) ملك اليهود من عام ٣٧ قبل الميلاد إلى عام ٤ قبل الميلاد (المترجم).

جميعاً، وبالنسبة ليسوع (نفسه) وبالنسبة للحواريين فإن مملكة الرب، الخلاص العالمي في متناول اليد. ولكن لو كان هذا هو الاستثناء أليس الواقع هو الذي يدحضه تماماً؟

إن هذا التساؤل قديم قدم الرسالة المسيحية ذاتها والإجابة هي بالمثل قديمة، فكما تدل النصوص فإن يسوع يأخذ تلامذته (هو) جانباً ويتحدث إليهم على حدة عندما يمدحهم (هو) لأنهم يرون ما هم يرونه. إن حضور (المسيح) هو سر، وهذا السر لا يقال لكل إنسان، ولا يمكن أن يراه كل إنسان، بل يراه وحسب الذين هم يشبهون سِمْعان الذين تسوقهم (الروح). هناك شئ عجيب، شئ غير متوقع عن ظهور الخلاص، شئ يناقض الآراء الورعة والمطالب العقلية. (إن سر الخلاص هو سر طفل). ومن هنا جرى توقعه من جانب أشعياء، من جانب الرؤية الحافلة بالوجد عند العرّافة، وعند الرؤية الشاعرية لدى (مريم العذراء) وعند العقائد الأسرارية وعند طقوس أولئك الذين يحتفلون بمولد دهر جديد. لقد شعر الجميع كما شعر المسيحيون في بواكيرهم بأن حادث الخلاص هو مولد طفل. إن طفلاً هو حقيقي ولم يولد حقيقياً بعد، إنه (في) التاريخ ومع هذا ليس تاريخياً بعد. إن طبيعته مرئية وخفية، إنه هنا وليس هنا بعد. وعلى هذا النحو تكون طبيعة الخلاص. (إن للخلاص طبيعة مماثلة لطبيعة طفل). وكما يتذكر (العالم المسيحي) يتذكر كل عام - في أكثر احتفالاته تأثيراً - الطفل (يسوع) كذلك الخلاص - مهما يكن مرئياً - يظل دائماً (أيضاً) خفياً. وإن من يريد خلاصاً يكون مرئياً (وحسب) لا يستطيع أن يرى الطفل الإلهي في (المِزوَد) أو (المِخلة) حيث أنه لا يستطيع أن يرى (الطابع الإلهي)، (الإنسان) الذي على (الصليب) والطابع الانفرادي الحافل بالتناقض الظاهري في كل عمل إلهي. إن الخلاص هو طفل، وعندما يشب عن الطوق يجري صلبه. وإن ذلك الذي يستطيع أن يرى القوة خلف الضعف، ويرى الكل خلف الشذرة، ويرى النصر خلف الهزيمة، ويرى العظمة خلف المعاناة، ويرى البراءة خلف الإثم، ويرى الجزاء خلف الخطيئة، ويرى الحياة خلف الموت هو وحده الذي يستطيع أن يقول: إن عيني قد رأت خلاصك.

ويصعب قول هذا في أيامنا. بل إن الأمر صعب دائماً وسوف يكون صعباً دائماً. لقد كان وهو كائن وسوف يكون سراً، سر طفل. ومهما يتعرض العالم للسقوط عميقاً حتى في دمار ذاتي كامل، طالما يوجد رجال سوف يعيشون هذا السر ويقولون: "مباركة أعيننا التي ترى الأشياء التي نراها".

(١٢)

الذي يؤمن بي.....

٤٤فَنَادَى يَسُوعُ: «الَّذِي يُؤْمِنُ بِي لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي. ٤٥وَالَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. ٤٦أَنَا قَدْ جِئْتُ نُوراً إِلَى الْعَالَمِ حَتَّى كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِي لاَ يَمْكُثُ فِي الظُّلْمَةِ. ٤٧وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كَلاَمِي وَلَمْ يُؤْمِنْ فَأَنَا لاَ أَدِينُهُ لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ. ٤٨مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلاَمِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ. اَلْكَلاَمُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ ٤٩لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ. ٥٠وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ فَكَمَا قَالَ لِي الآبُ هَكَذَا أَتَكَلَّمُ». (يوحنا ١٢: ٤٤- ٥٠)

"الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني ..." هذه الكلمات جاءت عقب شكوى مريرة من كاتب الإنجيل عن عدم الإيمان وشبه الإيمان لدى الناس وقادتهم. والكلمات تسبقها عبارة: "فنادى يسوع وقال ..." إنه يبذل جهوداً يائساً للغاية لكي يفهم. وإن ما ينادي بشأنه هو أن الإيمان به (هو) يعني عدم الإيمان به (هو). إن جدال غير المؤمنين كان - ويظل في كل العصور - أنه يستحيل الإيمان بيسوع الناصري كيسوع الناصري. لقد أعلن يسوع: "إن هذا الجدل صادق. فلو طُلب من الناس أن يؤمنوا بي فيجب ألا يفعلوا هذا. ولكن لم يُطلب منهم أي شئ على هذا النحو! لقد طلب منهم أن يؤمنوا به (هو) ذلك الذي أرسلني، الذي هو أعظم مني والذي أنا معه واحد. أنا لم أتكلم من تلقاء سلطاني" وهو يواصل: "فإذا فعلت هذا فإن غير المؤمنين سيكونون على حق".

هناك العديد من أشكال السلطان في الماضي والحاضر. لماذا نقبل سلطاناً ونرفض آخر؟ لماذا نقبل أي سلطان؟ وبالنسبة ليسوع فإن يسوع الإنسان ليس سلطاناً ولا هو موضوع الإيمان. ليست أي صفة من صفاته (هو) الرائعة - ليست حياته الدينية، ليس كما له الخلقي، ليست بصائره العميقة - تجعله (هو) موضوع الإيمان، هو السلطان الأقصى. وعلى هذا الأساس (هو) يقول، (هو) لا يمكن على أي مخلوق. فإذا

فعل (هو) سيكون طاغية يفرض (نفسه) ويفرض عظمته (هو) على الآخرين، ومن ثم يدمرهم بدل أن ينقذهم.

فماذا بالنسبة لوعظنا. إننا عندما نستخدم اسم يسوع ألا نكون في الغالب نحاول أن نفرض على أولئك الذين نتكلم إليهم وعلى أنفسنا شيئاً عظيماً بجانب (الله)؟ هل أوضحنا دائماً أن الإيمان به (هو) لا يعني الإيمان فيه (هو) إذا كان الأمر بالنفي الا نكون عاملين على التدمير أكثر من أن نكون عاملين على الخلاص؟

يبدو أن الفناين المصورين المسيحيين عرفوا المزيد عن هذا أكثر مما نفعل نحن في الغالب. إنهم لم يقدموا لوحة ليسوع الناصري كيسوع الناصري. لقد رسموه (هو) على أنه طفل بيت لحم الذي يحتوي الكون كله رغم أنه "راقد الآن في حجر مريم" على نحو ما تغنى لوثر. ومن خلال ملامحه (هو) الطفلية تضيئ قوة (سيد) العالم. أو أنهم رسموه (هو) على أنه الحامل المرئي للعظمة الإلهية في تلك الفسيفساء الرائعة حيث كل قطعة من ردائه تشف عن العمق اللامتناهي الذي يمثله ويعبر عنه. أو أنهم رسموه (هو) على أنه (المصلوب) الذي لا يعاني كإنسان مفرد، بل على أنه (هو) الذي يرمز إلى كلا الكون الذي يعاني والحب الإلهي الذي يشارك في معاناة العالم. أو أنهم رسموه (هو) على أنه المستقدم لدهر جديد والذي يسيطر على قوى الطبيعة ونفوس الناس والقوى الشيطانية قوى المرض والجنون والموت. لكنهم لم يعطوه (هو) ملامح فردية، لم يجعلوه ممثلاً لنمط سيكولوجي أو جماعة اجتماعية.

أنظروا إلى الصور في كنيسة سيستيني. لقد أعطى الفنان ميكلأنجلو طابعاً خاصاً لكل نبي، لكل عّراف ولكنه عندما صور يسوع على أنه القاضي الأكبر لم تظهر إلا قوة إلهية - إنسانية لا يمكن مقاومتها.

وفي عصرنا أصبح يسوع موضوع المقالات الخاصة بسيرة الحياة والناحية السيكولوجية وجرى تصويره كمتعصب أو ذهاني، أو كتقي يعاني، أو كمحسن اجتماعي أو كمثال أخلاقي، أو كمعلم ديني أو

كزعيم حشد من الناس - لقد كفَّ عن أن يكون المرء الذي فيه يمكننا أن نؤمن لأنه كف عن أن يكون المرء الذي فيه نحن (لا) نؤمن، وإذا آمنا به (هو) فإنه (هو) لم يعد (يسوع) الذي هو (المسيح).

إننا لا نستطيع أن نصلي إلا (لله). فإذا كان يسوع شخصاً بجانب (الله) فإننا لا نستطيع ولا يجب أن نصلي له (هو). هناك العديدون من المسيحيين، العديدون من بيننا، لا يستطيعون أن يجدوا طريقاً يربطهم بأمانة بمن يصلون ليسوع (المسيح) هناك شئ فينا ينفرنا، شئ أصيل وصادق، الخوف من أن نصبح عبدة أوثان، الخوف من أن ننقسم في ولائنا الأكبر، الخوف من النظر إلى وجهين بدل أن ننظر إلى وجه إلهي واحد.

ولكن من يراه (هو) يرى (الآب). ليس هناك وجهان. في وجه يسوع (المسيح) فإن (الله) "يجعل وجهه (هو) يشعّ علينا". فما من شئ يبقى في وجه يسوع (المسيح) يُقصِرُه على يسوع الناصري الذي هو حسب وجه فرد (واحد) بجانب آخرين. إن كل شئ في قَسَمَاته (هو) يشفّ عنه (هو) ذلك الذي أرسله (هو). لهذا، ولهذا وحده، يمكننا أن نتغنى في وقت أعياد الميلاد: "هَلُمَّ، دعونا نعبده!".

(١٣)

نعم.. و لا

١٩ لأَنَّ ابْنَ اللهِ يَسُوعَ الْمَسِيحَ، الَّذِي كُرِزَ بِهِ بَيْنَكُمْ بِوَاسِطَتِنَا، أَنَا وَسِلْوَانُسَ وَتِيمُوثَاوُسَ، لَمْ يَكُنْ نَعَمْ وَلاَ، بَلْ قَدْ كَانَ فِيهِ نَعَمْ. ٢٠ لأَنْ مَهْمَا كَانَتْ مَوَاعِيدُ اللهِ فَهُوَ فِيهِ النَّعَمْ وَفِيهِ الآمِينُ، لِمَجْدِ اللهِ، بِوَاسِطَتِنَا.

(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١: ١٩- ٢٠)

لقد حدث تغير في خطط سفريّات بولس ورد فعل غاضب من أهل كورنثوس المسيحيين على هذا التغير وقد استخدم بولس هذا لاتخاذ تأكيدات عميقة وبعيدة المدى عن يسوع (المسيح): "فيه دائماً (نعم)، وأنه ليس (نعم) و(لا)". وهذا يذكرنا بتناقض الكلمات لصوفي بروتستنتي عظيم والذي قد قال في (نعم) و(لا) تتكوّن كل الأشياء، إنه يذكرنا بالفلاسفة واللاهوتيين المقتنعين بأن الحقيقة لا يمكن التعبير عنها إلا من خلال (لا) و(نعم)، ويذكرنا فوق كل شئ بعقيدة بولس المحورية من أن (الله) يُجوِّز للخاطئ من أنه (هو) يقول (نعم) لذلك الذي يقول (هو) له (لا) متطرفة في الوقت نفسها. وألم يضع بولس في هذه الرسالة الثانية لأهل كورنثوس (نعم) و(لا) بطريقة شديدة التناقض الظاهري: "غير معروفين ومعروفون مع هذا تماماً، نموت وانظروا إننا نحيا، لا نملك شيئاً ومع هذا نمتلك كل شئ". هذا بالتأكيد (نعم) و(لا). ولكنه يقول: في (المسيح) لا توجد (نعم) و(لا). هل حقاً لا توجد؟ ألم ننحدر من يوم(جمعة طيب) إلى عيد الفصح - والذي يشير إلى أعمق (لا) وذروة (نعم) - ذلك الذي هو موت وحياة المسيح؟

(نعم) و(لا): من المؤكد أن هذا هو قانون الحياة كلها، ولكن ليس (نعم) وحدها وليس (لا) وحدها. إن (نعم) وحدها هي نصيحة ثقة ذاتية الخداع سرعان ما تهتز من جراء (لا) الخاصة بأشكال رمادية ثلاثة: الخواء، الذنب، الموت. إن (لا) وحدها هي نصيحة اليأس الذاتي الخداع الذي (النعم) الخفية الخاصة به التي تقال بذاتها يتجلى في عزلتها الذاتية ومقاومتها ضد (نعم) الحب والمشاركة. زيادة على ذلك، إن (نعم)

و(لا) هما قانون الحقيقة كلها. ليس (نعم) وحدها وليس (لا) وحدها. إن (نعم) وحدها هي الغطرسة التي تزعم أن حقيقتها المحدودة هي الحقيقة القصوى، ولكنها هي التي تكشف بتأكيدها الذاتي المتعصب الكثير الخفي من مجموعة (لا) حيث تكثر في أساسها. وإن (لا) وحدها هي الاستسلام الذي ينكر أي حقيقة قصوى ولكنه الذي يظهر برضائه النفسي السخرية ضد القوة الشديدة لكل كلمة من الحقيقة مقدار قوة (نعم) لنفسها من أنها تتضمن (لا) المتكررة دوماً الخاصة بها.

إن الحقيقة - شأنها شأن الحياة - توحد (نعم) و(لا)، وإن الشجاعة وحدها التي تجعل التوتر اللا متناهي بين (نعم) و(لا) هي التي لديها حياة عامرة وافرة وحقيقة قصوى. فيكف تكون مثل هذه الشجاعة ممكنة؟ إنها ممكنة لأن هناك (نعم) فوق (نعم) و(لا) للحياة وللحقيقة. لكنها (نعم) التي هي ليست خاصة بنا. فلو كانت هي الخاصة بنا فإنه حتى (النعم) الخاصة بنا والتي هي أكثر الأمور شجاعة وكلية وعظمة ستكون متعارضة من جانب (لا) أخرى. وهذا هو السبب في أنه ما من لاهوت وما من فلسفة حتى لاهوت أو فلسفة "(نعم) و(لا)" يكون هو الحقيقة القصوى. فبمجرد التعبير عنه فإنه يتناقض بلاهوت آخر أو فلسفة أخرى. ولا حتى رسالة (نعم) و(لا) على نحو ما يقول به كيركجور أو لوثر أو بولس يمكن أن تهرب من (لا). لا توجد إلا حقيقة واحدة حيث لا توجد (نعم) و(لا) بل (نعم) وحسب: يسوع باعتباره المسيح. أولاً هو أيضاً يتحمل الأمور في ظل (لا)، على نحو كامل باعتباره كائناً يمكن أن يتحمل الأمور، وهذا هو معنى (الصليب). إن كل شئ منه (هو) الذي هو فحسب تعبير عن الحياة المتناهية أو الحقيقة المتناهية يتحمل كل الحياة وكل الحقيقة في ظل (لا). لهذا ليس مطلوباً منا أن نتقبله (هو) على أنه المعلم الذي لا يرقى إليه الشك أو على أنه مضرب المثل الملائم دائماً، ولكن يقال لنا أن فيه (هو) كل وعود (الله) قد أصبحت حقيقة وأن فيه (هو) حياة وحقيقة تتجاوزان (نعم) و(لا) قد اصبحتا متجليتين. وهذا هو معنى البعث. "إن (لا) الموت يتم قهرها و(نعم) الحياة يجري تجاوزها من خلال ذلك الذي قد ظهر فيه (هو). إن حياة لا تتوازن بالموت، إن حقيقة لا تتوازن بالخطأ تكون مرئية

في وجوده (هو). إنه (هو) يبيِّن (النَعَم) النهائي بدون (لا) أخرى. هذه هي رسالة عيد الفصح، هذه هي الرسالة المسيحية مجتمعة. وهذه هي أساس شجاعة يمكن أن تتحمل التوتر اللا متناهي بين (نعم) و(لا) في كل شئ متناهٍ، حتى في كل شئ ديني وفي كل شئ مسيحي.

وبولس يشير إلى واقعة أن المسيحيين يقولون آمين من خلال (المسيح). والمرء لا يستطيع أن يقول آمين لأي شئ سوى الواقع الذي هو (المسيح). إن آمين هي صيغة تأكيد، هي التعبير عن اليقين الأقصى. ما من يقين أقصى سوى الحياة التي قهرت موتها والحقيقة التي قد قهرت خطأها و(النَعَم) التي تتجاوز (نعم) و(لا).

إن بولس يشير إلى ذلك الشئ الذي يعطينا مثل هذا اليقين. إنه ليس تقريراً تاريخياً، بل هو المشاركة (في) (المسيح)، في ذلك الذي نتأسس نحن فيه - كما يقول، هو الذي أعطانا ضمان (روحه هو) في قلوبنا. ونحن نستطيع أن نتحمل (نعم) و(لا) الخاصتين بالحياة والحقيقة لأننا نشارك في (نعم) فيما وراء (نعم) و(لا)، لأننا (فيها)، كما أنها هي (فينا). نحن المشاركون في بعثه (هو)، لهذا نستطيع أن نقول (نعم) القصوى، نستطيع أن نقول (آمين) فيما يجاوز (نعم) الخاصة بنا (نحن) و(لا) الخاصة بنا (نحن).

(١٤)

من هم اخوتي...؟

[19] وَيَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ الَّذِي أَسْلَمَهُ. ثُمَّ أَتَوْا إِلَى بَيْتٍ.
[20] فَاجْتَمَعَ أَيْضاً جَمْعٌ حَتَّى لَمْ يَقْدِرُوا وَلاَ عَلَى أَكْلِ خُبْزٍ.
[21] وَلَمَّا سَمِعَ أَقْرِبَاؤُهُ خَرَجُوا لِيُمْسِكُوهُ لأَنَّهُمْ قَالُوا: «إِنَّهُ مُخْتَلٌّ!» (مرقس٣ : ١٩ـ ٢١)
[31] فَجَاءَتْ حِينَئِذٍ إِخْوَتُهُ وَأُمُّهُ وَوَقَفُوا خَارِجاً وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَدْعُونَهُ. [32] وَكَانَ الْجَمْعُ جَالِساً حَوْلَهُ فَقَالُوا لَهُ: «هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ خَارِجاً يَطْلُبُونَكَ». [33] فَأَجَابَهُمْ: «مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي؟» [34] ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى الْجَالِسِينَ وَقَالَ: «هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي [35] لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي»[24].
(مرقس٣ : ٣١ـ ٣٥)

بالنسبة لمعظم أولئك الذين توجهوا إلى جامعة ليدرسوا، فإنها ليست المرة الأولى التي يتركون فيها بيت آبائهم. ولكن بالنسبة لهم جميعاً فإنها خطوة هامة في طريق استقلالهم الخاص عن الحياة. وكل خطوة على هذا الطريق تحملهم أبعد وأبعد عن المكان الذي جاءوا منه ألا وهو الأسرة التي فيها قد وُلِدُوا. والحركات الأولى نحو الاستقلال تحدث في حقبة مبكرة من الحياة ـ كما تتمثل في قصة يسوع وهو في الثانية عشرة من عمره في المعبد. وما من حركة من هذه الحركات قد خلت من الألم والذنب المأساوي ـ كما يتمثل في قلق أهل يسوع[25] وما وجهوه إليه من لوم. ولكن بعد أن شرع يسوع في أوجه نشاطه (هو) العامة وحسب فإن عمق الهوة بينه (هو) وبين أسرته (هو) أصبح جلياً تماماً. وفي القصة التي قد قرأناها في التو والتي سجلتها الأناجيل الثلاثة الأولى فإن يسوع استخدم العلاقات الأسرية كرموز

(٢٤) النص الإنجليزي كما أورده بول تيليش يقول ما ترجمته نصياً: "لأنهم قالوا: "إنه بجانب نفسه" لكننا أوردنا الوارد في الترجمة العربية للكتاب المقدس وقد لزم التنويه (المترجم).

(٢٥) النص يقول قلق والديه، وقد غيرنا الترجمة لسببين الأول أن النص الوارد في إنجيل لوقا يقول: " من أمي وإخوتي .. إن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي" ولم يأت لفظ (أبي) والسبب الثاني ما جاء في القرآن الكريم من أن عيسى هو ابن مريم من غير أب (المترجم).

عن علاقة نظام أعلى بالجماعة التي تحقق مشيئة (الله). إن شيئاً ما غير مشروط نفذ إلى العلاقات المشروطة للأسرة الطبيعية وأوجد جماعة هي على درجة كبيرة من الصميمية والقوة شأنها في هذا شأن العلاقات الأسرية، وفي الوقت نفسه هي أسمى بشكل لا نهائي. إن عمق هذه الهوة يتأكذ في محاولة أسرته (هو) أن يمسكوا به (هو) وإحضاره (هو) إلى المنزل بسبب تصرفه (هو) الشاذ الأمر الذي جعلهم يعتقدون أنه (هو) قد فقد عقله (هو). والهوة جرى التعبير عنها بقوة في قوله (هو) إن مَن يحب أباه وأمه أكثر مما يحبه (هو) لا يمكن أن يكون من أتباعه (هو) وهي كلمات ذات طابع حتى حاد في إنجيل لوقا حيث أن المرفوض من جانبه (هو) كل إنسان لا (يكره) أباه وأمه وزوجته وأطفاله وإخوته وأخواته - بل وحتى حياته نفسها.

وكل هذه الكلمات مستقطعة بقوة إلهية من خلال العلاقة الطبيعية بين أفراد الأسرة عندما تزعم هذه العلاقات أنها علاقات بحد أقصى. إنها مستقطعة من خلال رابطة التقاليد الموغلة في القدم والقناعات ومطالبها غير المشروطة، إنها مستقطعة من تكريس الروابط الأسرية من خلال الطقوس الأسرارية وغيرها من القوانين التي تجعلها متساوية مع أولئك الذين ينتمون إلى الواقع الجديد في (المسيح). إن الأسرة ليست تكريساً من أجل الهدف النهائي لوجود الإنسان. ونحن نستطيع أن نتخيل الطابع الثوري لمثل هذه الأقوال في مواجهة أديان وثقافات البشرية ونحن نستطيع بالكاد أن نقيس طابعها الذي يحدث اضطراباً في وجه ما قد حدث قرناً إثر قرن داخل ما يسمى الأمم المسيحية - مع دعم من الكنائس المسيحية بشأن من ذا الذي يستطيع أن يقاوم الطابع الشديد للرسالة المسيحية في هذا المجال كما في المجالات الأخرى. وعلى أي حال فرغم الطابع الشديد فإن الرسالة المسيحية لم تتطلب حلّ الأسرة. إنها تؤكد الأسرة وتحدد دلالتها وأهميتها. ويسوع أخذ بنبوءة ميخا أنه في الأيام الأخيرة "سوف يسلم الأخ أخاه للموت والأب يسلم طفله، والأطفال سيهبون ضد آبائهم ويدفعونهم إلى الموت" وهذا يمتُّ إلى حقب فيها تستولي القوى الشيطانية على العالم حتى أن جماعة الأسرة تتحول إلى ضدها. ولكن يسوع عندما يستخدم هذه النبوءة فإنه

(هو) يضيف "ستكون مكروهين من كل من أجل إسمي". والكلمات نفسها التي تشير إلى التمزيق الشيطاني للأسرة تستخدم لوصف تمزقها الإلهي الذي لا مهرب منه. وهذا هو الالتباس العميق للتعاليم الإنجيلية بشأن الأسرة.

والآن دعونا نتأمل في موقفنا. إننا لا نستطيع أن نمزق الروابط مع الأسرة دون أن نتهم بأننا مذنبون. ولكن السؤال هو: هل مرغوب فيه ذلك الذي يمزق جماعة الأسرة على نحو شيطاني، أم أن هذا هو خطوة نحو الاستقلال وفهم المرء لمشيئة (الرب) التي تحررنا إلهياً من رابطة أسرتنا؟ إننا لا نعرف على الإطلاق الجواب بيقين علينا أن نخاطر بالذنب المأساوي بأن نصبح متحررين من الأب والأم والإخوة والأخوات. ونحن نعرف اليوم على نحو أفضل من الأجيال العديدة قبلنا - نعرف ماذا يعني هذا كم أن الأمر صعب بشكل لا متناه إن هذا ولا يمكن لأي إنسان أن يفعل هذا بدون أن يحمل جراحاً في نفسه وفي كل حياته. وليس الأب أو ليس الأم أو ليس الأخ أو ليس الأخت وحدهم هم الذين يجب أن نتحرر منهم لكي نصبح أنفسنا. إنه شئ أكثر من أن يمكن تحديده، صورتهم التي من أيام طفولتنا المبكرة تُخَصِّب نفوسنا. إن الأب الحقيقي، إن الأم الحقيقية، قد يدعنا أو تدعنا نتحرر، وإن كان هذا ليس بالمرة القاعدة في الأسر المسيحية. ولكن حتى لو كانت لديهم الحكمة للقيام بهذا، فإن صورهم كانت ستمنعنا من عمل مشيئة الرب في موقف عيني ألا وهو أن نقوم بأعمال حيث يتحد الحب مع القوة والعدالة. إن صورهم قد تمنعنا من الحب وذلك بالخضوع للقانون. قد تمنعنا من أن تكون لدينا قوة من خلال إضعاف مركزنا الشخصي. قد تمنعنا من ممارسة العدالة بأن تُعمينا عن الموقف العيني ومطالبه. والأمر نفسه يحدث مع صور الإخوة والأخوات. وإن كان الأمر أسهل أن نتحرر منهم بالمعنى الخارجي فإنهم قد يتخذوا - على نحو خفي - قرارات تقوض للأسوأ كل حقب حياتنا.

ولكن لا تفهموني خطأ! إن المعارضة والتمرد ليسا الحرية بعد. إنهما يشكلان مراحل لا يمكن تجنبها في الطريق إلى الحرية. ولكنهما

تخلقان عبودية أخرى إذا لم نتمكن من التغلب عليهما بمثل ما كان من ضرورة التغلب على التبعية السابقة. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ من المؤكد في الحالات المرضية، مطلوب العلاج النفسي على نحو ما أن يسوع (نفسه) تصرف على أنه المداوي جسمانياً وعقلياً. لكن المزيد هو أمر ضروري ألا وهو الاعتماد على ذلك الذي يعطي الاستقلال الاقصى، صورة ذلك الذي يشمل ويتجاوز صور كل أب وأم، يتجاوز حياة ذلك الذي يمكن من كراهية كل حياة وحبها بما في ذلك حياتنا. ما من مشكلة إنسانية ومن المؤكد ليست مشكلة الأسرة يمكن حلها على مستوى متناهٍ. وهذا حقيقي رغم أننا نعرف أنه حتى صورة (الله) يمكن أن تشوهها صور الأب والأم، حتى أن قوتها المُخَلِّصَة تكاد تكون مفقودة. هذا هو خط كل الدين وهو حد خطير لكل عملنا الديني. لكنه ليس حداً (لله) الذي مراراً وتكراراً ينفذ من الصور التي كوناها عنه (هو) والذي أظهر في (المسيح) أنه (هو) ليس أبانا وأمنا فحسب، بل هذا أيضاً الطفل، ولهذا ففيه (هو) الصراعات التي لا مهرب منها لكل أسرة يجري قهرها. إن (الأب) الذي هو أيضاً طفل يكون أكثر من أب بمثل ما أنه (هو) أكثر من طفل. لهذا نستطيع أن نصل (للآب) الذي في السماء بدون أن ننقل عداوتنا لصورة الأب إليه (هو). لأن (الرب) قد أصبح طفلاً، فإن من الممكن لنا أن نقول (أبانا).

(١٥)

الكل لكم

١٨لاَ يَخْدَعَنَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ حَكِيمٌ بَيْنَكُمْ فِي هَذَا الدَّهْرِ فَلْيَصِرْ جَاهِلاً لِكَيْ يَصِيرَ حَكِيماً! ١٩لأَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْعَالَمِ هِيَ جَهَالَةٌ عِنْدَ اللهِ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «الآخِذُ الْحُكَمَاءَ بِمَكْرِهِمْ».

(رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٣: ١٨- ١٩)

عندما يستعمل متحدث في صلاة الصباح بكنيسة هذا على أنه نصه تلقيت سؤالاً مكتوباً في فصل: "ماذا تظن في موعظة الصباح هذه؟" وهذا هو الأمر المتضمن: كيف يمكن للفلسفة أن تواجه وجهة نظر كلمات بولس التي تُحِطُّ من الشأن؟ وأنا أحب أن أرد بأن أحاول أن أفسر ما أعتقد أن بولس يقصده لا في القوة السابقة وحسب بل في النص كله بتمامه. وهو في نهاية مناقشته أعطي المفتاح بقوله: **٢١إِذاً لاَ يَفْتَخِرَنَّ أَحَدٌ بِالنَّاسِ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَكُمْ: ٢٢أَبُولُسُ أَمْ أَبُلُّوسُ أَمْ صَفَا أَمِ الْعَالَمُ أَمِ الْحَيَاةُ أَمِ الْمَوْتُ أَمِ الأَشْيَاءُ الْحَاضِرَةُ أَمِ الْمُسْتَقْبَلَةُ. كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ. ٢٣وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلِلْمَسِيحِ وَالْمَسِيحُ لِلَّهِ.**(رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٣: ٢١- ٢٣).

إن بولس يسأل: "هل جعل الله حكمة العالم حماقة؟" والآن هو يتعجب "العالم والحياة وأبولُس كل شئ لكم". هذا يعني أن حكمة العالم هي حكمتنا أيضاً كيف يمكن أن يكون الأمر على نحو آخر؟ إننا لا نستطيع حتى أن نقرأ كلمات بولس بدون حكمة العالم التي تمكننا من فهم النصوص القديمة التي تعطينا الأدوات الفنية لنشر الرسالة المسيحية في جميع أنحاء المعمورة التي تنتج وتحفظ المؤسسات السياسية والتربوية والفنية التي تخدم الكنيسة وتحميها. وكل هذا ملكنا وحتى أشكال اللاهوت المختلفة هي خاصة بنا. وكلما ازداد بولس جدلاً ازداد بطرس في الطقوس، وازداد أبولُس اعتذاراً. ولا يوجد إلا نمط واحد من اللاهوت يكرهه بولس وهو الذي يريد أن يحتكر المسيح ويسمي نفسه حزب المسيح. فكل شكل من أشكال هذا اللاهوت هو حكمة يحتاج إليها العالم، إننا في حاجة إلى الكتبة، إننا في حاجة إلى الفلسفة، إننا

في حاجة إلى لغة يساهم فيها كل إنسان. إنه يستحيل أن ننكر كل هذا. لكن من الممكن أن نكذِّب من خلال الحديث الواهي ما لا يمكن للمرء أن يتجنبه وهو يستخدمه في الوقت نفسه. هناك خيانة عميقة في توجيه الاتهام ضد استخدام البحث التاريخي والتفكير الفلسفي في اللاهوت. وفي حياتنا اليومية يطلق المرء على إنسان ما اسم الخائن الذي يضع سمعة سيئة على أولئك الذين يستخدمهم. فلا يجب أن نرتكب هذه الخيانة في عملنا اللاهوتي. ونحن لا نستطيع أن نتجنب استخدام حكمة هذا العالم لا مهرب إذا قلنا: دعونا نستخدم القليل فيها، وليس الكثير لكي نتجنب الأخطار الواردة فيها. من المؤكد أن هذا هو ما لا يقصده بولس. إن العالم بأسره هو ملككم كما يقول، الحياة برمتها، الحاضرة والقادمة، لا أجزاء منها. وهذه الكلمات الهامة تتحدث عن المعرفة العلمية وعواطفها وجمالها الفني واستثارتها والسياسة واستخدامها للقوة، والأكل والشرب وما فيها من بهجة، والحب الجنسي وما فيه من وجد مشبوب، والحياة العائلية ودفئها والصداقة مع حميمِّيتها، والعدالة وما فيها من أريجية، والطبيعة بقوتها وسكونها، العالم الذي يصنعه الإنسان فوق الطبيعة، والعالم التقني وما فيه من افتتان، والفلسفة بتواضعها - وهي تجرؤ وحسب أن تسمي نفسها حب الحكمة وعمقها - بجرأة لطرح الأسئلة القصوى. وفي كل هذه الأشياء توجد حكمة هذا العالم وقوة هذا العالم وكل تلك الأشياء التي هي أشياؤنا. إنها كلها تمت إلينا ونحن نمت إليها، نحن نبدعها وهي تحققنا.

لكن ... و"لكن" هذه عند بولس ليست من نوع "لكن" حيث كل شئ يجري سحبه بعد أن تم تقديمه من قبل. إن "لكن" الكبرى بالنسبة للعالم الذي هو غالباً تعطي كلا أساس العالم وحده والذي هو عالمنا: "وأنتم أناس (المسيح)" أي ذلك (المسيح) الذي (صليبه) هو الحمق والضعف لحكمة العالم. إن حكمة هذا العالم في كل أشكالها لا تستطيع أن تعرف (الله)، وقوة هذا العالم بكل وسائله لا تستطيع أن تصل إلى (الله). ولو حاولوا، فإنهم يقدمون الوثنية وهم ينكشفون في حمقهم، والذي هو حمق الوثنية. ما من كائن متناهٍ يستطيع أن ينال اللا متناهي بدون أن ينكسر مثله (هو) ذلك الذي يمثل العالم وحكمته وموته قد انكسر

على (الصليب) هذا هو حمق وضعف (الصليب) والذي هو الحكمة القصوى والذي هو السبب في أن (المسيح) ليس حاملاً آخر لحكمة وقوة هذا العالم، بل إنه (هو) رسول (الله). إن (الصليب) جعله رسول (الله). ومن هذا الحمق نكتسب الحكمة لكي نستخدم ما في حوزتنا، حكمة العالم، بل وحتى الفلسفة. فإذا لم تنكسر فإنها تسيطر علينا. وإذا انكسرت فإنها تكون ملكنا. إن "الانكسار" لا يعني التقليل أو التحول أو الهيمنة عليها، بل يعني استئصال زعمها الوثني.

وشجاعة بولس في تأكيد كل ما هو مُعطىً، في انفتاحه على العالم، هيمنته على الحياة، كلها تُخجِل كل واحد منا وكذلك كل كنائسنا. إننا خائفون من تقبل ما أُعطِيَ لنا، إننا في عزلة ذاتية إجبارية تجاه عالمنا، ونحن نحاول الهرب من الحياة بدل السيطرة عليها. إننا لا نتصرف كما لو كان كل شئ هو ملكنا. والكنائس تسلك على هذا النحو حتى ولو بشكل أقل. والسبب في هذا هو أننا وكنائسنا لا نعرف - كما عرف بولس - ماذا يعني أن نكون (للمسيح)، ولأننا نكون (للمسيح) نكون (لله).

(١٦)

هل توجد كلمة من قِبل اللّه؟

٢١[لَمْ أُرْسِلِ الأَنْبِيَاءَ بَلْ هُمْ جَرُوا. لَمْ أَتَكَلَّمْ مَعَهُمْ بَلْ هُمْ تَنَبَّأُوا. ٢٢وَلَوْ وَقَفُوا فِي مَجْلِسِي لأَخْبَرُوا شَعْبِي بِكَلاَمِي وَرَدُّوهُمْ عَنْ طَرِيقِهِمِ الرَّدِيءِ وَعَنْ شَرِّ أَعْمَالِهِمْ. ٢٣أَلَعَلِّي إِلَهٌ مِنْ قَرِيبٍ يَقُولُ الرَّبُّ وَلَسْتُ إِلَهاً مِنْ بَعِيدٍ. ٢٤إِذَا اخْتَبَأَ إِنْسَانٌ فِي أَمَاكِنَ مُسْتَتِرَةٍ أَفَمَا أَرَاهُ أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ؟ أَمَا أَمْلأُ أَنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ يَقُولُ الرَّبُّ؟ ٢٥قَدْ سَمِعْتُ مَا قَالَهُ الأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ تَنَبَّأُوا بِاسْمِي بِالْكَذِبِ قَائِلِينَ: حَلُمْتُ حَلُمْتُ. ٢٦حَتَّى مَتَى يُوجَدُ فِي قَلْبِ الأَنْبِيَاءِ الْمُتَنَبِّئِينَ بِالْكَذِبِ؟ بَلْ هُمْ أَنْبِيَاءُ خِدَاعِ قَلْبِهِمْ! ٢٧الَّذِينَ يُفَكِّرُونَ أَنْ يُنَسُّوا شَعْبِي اسْمِي بِأَحْلاَمِهِمِ الَّتِي يَقُصُّونَهَا الرَّجُلُ عَلَى صَاحِبِهِ كَمَا نَسِيَ آبَاؤُهُمُ اسْمِي لأَجْلِ الْبَعْلِ. ٢٨اَلنَّبِيُّ الَّذِي مَعَهُ حُلْمٌ فَلْيَقُصَّ حُلْماً وَالَّذِي مَعَهُ كَلِمَتِي فَلْيَتَكَلَّمْ بِكَلِمَتِي بِالْحَقِّ. مَا لِلتِّبْنِ مَعَ الْحِنْطَةِ يَقُولُ الرَّبُّ؟ ٢٩أَلَيْسَتْ هَكَذَا كَلِمَتِي كَنَارٍ يَقُولُ الرَّبُّ وَكَمِطْرَقَةٍ تُحَطِّمُ الصَّخْرَ؟ ٣٠لِذَلِكَ هَئَنَذَا عَلَى الأَنْبِيَاءِ يَقُولُ الرَّبُّ الَّذِينَ يَسْرِقُونَ كَلِمَتِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

(إرميا ٢٣: ٢١- ٣٠)

17ثُمَّ أَرْسَلَ الْمَلِكُ صِدْقِيَّا وَأَخَذَهُ وَسَأَلَهُ الْمَلِكُ فِي بَيْتِهِ سِرّاً: [هَلْ تُوجَدُ كَلِمَةٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ؟] فَقَالَ إِرْمِيَا: [تُوجَدُ. إِنَّكَ تُدْفَعُ لِيَدِ مَلِكِ بَابِلَ]. (إرميا ٣٧: ١٧)

هل توجد كلمة من قِبَل الرب؟ هذا سؤال يطرحه الناس في كل حقب التاريخ. لقد سأله الملوك في لحظات الخطر. لقد سألوه عن الكهنة والأنبياء. ولقد طرح السؤال الناسُ في كل العصور وكل الأماكن في ساعات الاضطراب. لقد طرحوا السؤال على الرجال غير العاديين والنساء غير العاديات، وغالباً أولئك الذين يعدون شاذين والمجاذيب والمصابين بالهستريا. ولقد طرحَ السؤالَ أفراد في لحظات القرارات الشخصية العظيمة. لقد طرحوا السؤال عن الكتب المقدسة التي يمكن تدلي بكلمة خاصة لهم من القديسين والأصوات الباطنية.

فماذا بشأننا؟ ألم يحدث إطلاقاً أننا طلبنا كلمة من (السيد)؟ من المؤكد أن كثيرين سوف يردون بكلمة محددة هي (لا). إنهم سوف يقولون لنا أنهم قرروا دائماً لأنفسهم، واستعملوا حكمهم المعقول، القائم على التجربة والمعرفة والذكاء. ربما يؤثرون فينا. ربما نكون خجولين لنعترف أننا أحياناً (قد) طلبنا كلمة من (السيد). ولكن دعونا ننتظر مع إجابتنا حتى نجد ماذا تعنيه هذه الكلمات.

لا يجب أن تضللنا عبارة "كلمة من (السيد)" فهي تدوّي كما لو كنا قد تحولنا إلى سلطان سماوي بعد كل السلاطين الآخرين بما في ذلك سلطان العقل، وقد فشلت. إن الأمر يدوّي كما لو أننا طلبنا من (سيد) العناية الإلهية أن يمنحنا لحظة، لمحة مما يدبر (هو) لنا فردياً وفي التاريخ. ولكن هذه المكرمة لم تُمنَح لنا. إن الأجوبة التي أدلى بها العرافون والمجاذيب، الكتب والأصوات الباطنية غامضة في معظمها، معرضة لمختلف التفاسير، حتى أنه ينبغي علينا أن نطلب كلمة (إلهية) ثانية لتفسير الكلمة الأولى وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. أو أن هذه الأجوبة واضحة وتتفق مع خير حكمة يمكن أن نمتلكها بدونها. لهذا فإنني أكرر: لا يجب أن تضللنا عبارة "كلمة من (السيد)". ليست هذه كلمة معجزة تقول لنا ماذا نفعل أو ماذا نتوقع. إذن ما هي؟

إنها صوت من بعد آخر غير ذلك الذي فيه نعيش عادة. إنها تَسْتَقْطِعُ بُعدَ الأشياء والأحداث التي نسميها عالمنا. إنها لا تساعدنا على تدبير الأمور داخل هذا البُعد على نحو أكثر نجاحاً عن ذي قبل. إنها لا تضيف إلى معرفتنا بالعوامل التي تؤثر في موقف ما، إنها لا تمحو المسئولية بالنسبة لقراراتنا. إنها تعمل شيئاً آخر. إنها ترفع الموقف الذي علينا فيه أن نقرر في ضوء بُعد جديد، بعد ذلك الذي هو عام بشكل أقصى ودال على نحو لا متناه والذي من أجله تستعمل كلمة (إلهي).

وهكذا في حالة الملك صدقيا والأنبياء الكذبة الذين كان على إرميا أن يحاربهم. لقد جاء الملك إلى إرميا في موقف اليائس، في موقف أوجد نفسه فيه وشعبه من خلال الذنب والخطأ ويصرف النظر عن تحذيرات النبي. لقد عاونه في قراره الخطأ السياسيون الوطنيون

الذين يسمون أنفسهم (أنبياء) من غير أن يتلقوا كلمة من (الله). إنهم لم يفسروا موقف يهوذا وسط الإمبراطوريات التي تشكل تهديداً في جديته. لقد كانت تنقصهم الواقعية التي هي صفة النبوة الحقة. إنهم لم يكونوا قادرين أن يتطلعوا إلى ما وراء الاحتمالات السياسية والحسابات العسكرية. ومن ثم فإن الكارثة اقتربت وتسببت في محاولات الملك صدقيا اليائسة أن يحصل على كلمة عزاء أو كلمة تعينه من النبي. لكنه لم يحصل على ما يريده. وإرميا من سجنه يقول له شيئاً واحداً (لا) يحب أن يسمعه: سوف يتم تسليمك إلى يد ملك بابل! إن (الله) لن ينقذك. ولقد شعر الملك بهذا: إذن الأمر هكذا! إنه لم يغتل نبي القدر المشئوم على نحو ما يفعل اليوم الطغاة أو سواد الناس الوطنيين. بل الأمر بالعكس، لقد عاونه للخروج من سجنه التعس. لكنه لم يفعل أي شئ لتغيير الموقف لقد تأخر كثيراً جداً عن هذا سياسياً وسيكولوجياً، وإن تهديد النبي، الكلمة التي تلقاها من (السيد) لصدقيا أصبحت واقعاً مخيفاً. ولكن تم النطق بها ولكن عبثاً. ولقد جرى تذكرها منذ ذياك الوقت لا كتقرير تاريخي مهم بل كحادثة فيها ما هو أبدي قد أعطى معنا أقصى لكارثة تاريخية.

والكلمات العديدة من (الرب) المسجلة في (العهد القديم) لها نفس الصفة. فهي ليست وعوداً من حاكم كلي القدرة يحل محل القوة السياسية والعسكرية. إنها ليست دروساً اتخذت من معلم كليُّ العلم تحل محل الأحكام القوية. إنها ليست نصائح من مستشار سماوي يحل محل المجلس البشري الذكي. بل هي تجليات لشئ أقصى ينفذ في وجودنا بكل اهتماماته وبصائره الأولية إنها لا تضيف شيئاً إلى موقفنا، لكنها تضيف بُعداً للبُعد الذي نعيش فيه على نحو عادي. إن الكلمة من (الرب) هي الكلمة التي تتحدث من عمق موقفنا. ويمكن للمرء أن يقول إن هذا هو أعمق معنى للموقف، أعمق معنى لكل موقف يتأتى لنا في مثل هذه الكلمات. وأيضاً إن موقفنا هو الذي يتكلم إلينا عندما نتلقى كلمة من (الرب).

ودعونا نتخيل ساعة فيها علينا أن نتخذ قراراً هاماً، وليكن اختيار

رسالة روحية ولتكن اختيار رفيق للحياة. إننا نعرف معظم العوامل التي تستطيع أن تحدد قرارنا، ونحن نعرف الطرق التي تعمل بها نفوسنا في العلاقة بهذه العوامل. ومع هذا لا نستطيع أن نحدد. (إن القلق بالنسبة لما هو ممكن) هو الذي يجعلنا مُتَمَلمِلِين. إننا نرى إمكانية، إمكانيتين، وربما إمكانيات أكثر. ونحن ندرك عدداً مقلقاً للنتائج الممكنة في كل منها. ونحن نسأل الأصدقاء، المستشارين، ونحن نبحث عن مداولة في أنفسنا. غير أن القلق من أن علينا أن نقرر يتزايد. وينمو شوق في نفوسنا، لشئ يحررنا من قلق ما هو ممكن ويعطينا شجاعة تجاه ما هو واقعي. إن التساؤل هو تساؤل عن نصِّنا: هل هناك كلمة من (الرب)؟ وربما قد جرى تلقي جواب. لكنه ليس كلمة معجزة تشير إلى التوجه الحق للاختيار، أو الإنسان الحق أو المرأة الحق لكي ننضم إليه. لقد كان صوتاً من أعماق موقفنا، يرفع مشكلاتنا العينية إلى منظور أقصى. وبهذا الفعل يحتمل أنه يحط من شأن بعض العوامل التي تحدد قرارنا وركزت على غيره. أو أن يكون قد ترك توازن الإمكانيات دون تغيير، بل أعطانا شجاعة لاتخاذ قرار بكل المخاطر لقرار بما في ذلك الخطأ والفشل والذنب. والكلمة من (الرب)، صوت عمق موقفنا ينهي قلق ما هو ممكن ويعطي شجاعة لتأكيد الواقع بكل ما فيه من عناصر عديدة هي موضع التساؤل.

قد يقول بعضكم: إذا كان هذا هو ما تعنيه "كلمة من (الرب) فكيف تساعدني في لحظات اتخاذ القرار؟ لكن هل تريدون مني حقاً أن أخبركم إلى أين تتجهون من أجل معجزة تحرركم من عبء اتخاذ القرار؟ من المؤكد أن هذا هو الضعيف فيكم الذي يحب مثل هذا. ولكن ما هو قوي فيكم سيرفض هذا. إن (الرب) الذي منه تستمدون كلمة يريدكم أن تقرروا بأنفسكم. إنه لا يقدم لكم طريقاً آمناً. قد تكونون مخطئين في قراركم. ولكن إذا أدركتم أن الإنسان في علاقته بالله هو دائماً على خطأ فإن خطأكم قد يصبح صواباً: فإذا أنتم، وأنتم في حضرة الأبدي - خاطرتم بالهزيمة، فإنه من خلال هزيمتكم عينها قد أَتَتْكُم كلمة من (الرب).

دعونا الآن ننظر إلى موقف مختلف، وهو موقف ليس علينا فيه أن نتخذ قراراً خطيراً، وفيه فإن القرارات البسيطة التي علينا أن نتخذها يومياً لا تعطينا الكثير من القلق. ليست هناك تهديدات عينية ضد الحياة والرفاهية، لا يوجد شعور بالذنب المُحبِط أو يأس بالنسبة لأنفسنا. لا يوجد شك يمزق أو خواء لا يمكن احتماله. لا يوجد موقف متطرف. هل يعني هذا أنه لا توجد رغبة في طلب كلمة من (الرب)؟ هل المواقف التي هي ليست مواقف متطرفة محرومة من كلمة من بُعد ما هو أبدي؟ هل الله صامت إذا كانت أساسات وجودنا (لم) تهتز؟ إنه سؤال صعب، وتجري الإجابة عليه بعدة طرق مختلفة! كيف يمكننا أن نرد؟ إنني لن أنسى مطلقاً الكلمة التي جاءت من رجل مُسِن حكيم قال لجدي عندما كنت لا أزال طفلاً: "إنني أحتاج إلى إنسان أستطيع أن أشكره عندما أمنَحُ فرحاً كبيراً". هل يمكننا أن نشارك في هذه التجربة؟ هل نتذكر مثل هذه اللحظات التي فيها جعلنا الأبدي نستشعره من خلال الوفرة أو العظمة أو جمال ما هو مؤقت زماني؟ أعتقد أنه ما من مخلوق منا يخلو تماماً من مثل هذه التجارب. ولكن ألم نقل إن كلمة من (الرب) هي الأبدي يقطع أوصال ما هو مؤقت وزماني؟ من المؤكد أن الأمر على هذا النحو! لكن تقطيع أوصال المؤقت والزماني لا يعني نفيه. إن الأمر (يستطيع) أن يكون له معنى، بل إنه له معنى (بالفعل) عندما نساق إلى موقف أقصى. وفي حياة كل إنسان توجد مثل هذه المواقف، وهي متعددة في التاريخ المأساوي للإنسان. لكن الأبدي يمكنه أيضاً أن يقطع أوصال ما هو مؤقت زماني بتأكيده، بأن يرفع جزءاً منه من السياق العادي للأشياء والأحداث الزمانية المؤقتة ويجعلها شفافة للعظمة (الإلهية). وبدون هذه اللحظات، فإن الحياة ستكون فقيرة وداعية إلى الأسى، لكن تكون هناك إبداعات يجري فيها التعبير عن عظمة الحياة. لكن هذه الإبداعات موجودة، والأبدي يشعّ من خلالها، إنها تستطيع أن تصبح كلمة من (الرب) لنا.

ولكن لا يزال بعضكم يفكر: كل هذا قد يكون على نحو ما تقول، لكنه يظل غريباً بالنسبة لنا. فليس في المواقف القصوى ولا في لحظات الرفعة العظيمة يكون الأبدي قد مَزّق أوصال الوجود المؤقت الزماني.

إننا لم نتلق إطلاقاً كلمة من (الرب). ربما لم تسمعوها أنتم. ولكن من المؤكد أنها قيلت لكم. وذلك لأنه توجد دائماً كلمة من (الرب) كلمة (قد) قيلت بالفعل. إن مشكلة الإنسان ليست هي أن الله لم يتحدث إليه: إن الله يتحدث (بالفعل) لكل إنسان له ملامح إنسانية. فهذا هو الذي يجعله إنساناً. وإن من لا يقدر أن يدرك شيئاً له طابع أقصى، شئ هام على نحو لا متناه ليس إنساناً. إن الإنسان يكون إنساناً لأنه قادر على أن يتلقى كلمة من بُعد ما هو أبدي. وليست المشكلة هي أن البشرية لم تتلق أي كلمة من (الرب)، المشكلة هي أنها تلقت وقاومت وشوهت. هذا هو مأزقنا نحن جميعاً. إن الوجود الإنساني ليس على الإطلاق خالياً من ذلك الذي ينفذ فيه على نحو مباشر. إن الإنسان لا يخلو من تَجَلٍ لذلك الذي هو جاد على نحو أقصى وله معنى بشكل لا متناه إنه لا يخلو من كلمة من (الرب) وهو لا يكف على الإطلاق عن مقاومتها وتشويهها في كلا الأمرين: عندما يكون عليه أن يسمعها وعندما يكون عليه أن يقولها.

إن كل مسيحي وخاصة كل كاهن مسيحي يجب أن يعي هذا: إننا نقاوم ونشوه الكلمة من (الرب) ليس فحسب عندما نسمعها بل أيضاً عندما نقولها. وعندما نسأل لماذا تُنبذ رسالتنا عن (كلمة) (الله) فإننا في الغالب نجد أن المرء لا ينبذ ذلك الذي نكون لأجله، بل ينبذ (الطريقة) التي نكون بها لأجله. وكثيرون ممن ينبذون (كلمة) (الرب) ينبذونها بسبب الطريقة التي نقول بها إنها بلا معنى تماماً بالنسبة لهم. إنهم يعرفون بُعد ما هو أبدي، لكنهم لا يستطيعون أن يتقبلوا أسماءنا التي نطلقها عليه. فإذا تمسكنا بكلماتهم، فقد نشك فيما إذا كانوا قد تلقوا كلمة من (الرب). وإذا نحن التقينا بهم كأشخاص فإننا نعرف أنهم تلقوها.

هناك دائماً كلمة من (الرب)، كلمة كانت قد قيلت. والكنيسة المسيحية تؤمن بأن هذه الكلمة لها محتوى رئيسي، وأن اسمها هو (يسوع) (المسيح). لهذا فإن الكنيسة لا تسمى (كلماته) (هو) بل تسمي (وجوده) (هو) (كلمة) (الرب). إن الكينسة تؤمن بأنه في (وجوده هو) ينفذ الأبدي فيما هو وقتي وزماني على نحو يعطي لنا تماماً (كلمة)،

بل (الكلمة) التي هي من (الرب). وهي تؤمن بأن الكلمة مهما تكن الصادرة من (الرب) قد قيلت في كل العصور وفي كل حياة فردية، وهي متضمنة في هذه (الكلمة بألف لام التعريف) والتي ليست كلمات بل الواقع، وقع جديد، واقع الأبدي في الزماني، وهو يقهر مقاومة وتشويهات ما هو زماني مؤقت.

وهكذا أليست لدينا (كلمة) بل (الكلمة) من (الرب)؟ ونحن كمسيحيين هل نستطيع أن نفخر بأننا نملك هذه الكلمة [٢٦] هل نستطيع حقاً؟ ألم نتلق الرسالة من خلال الناس، وألسنا - نحن الذين سمعوها - أناساً؟ وألا يعني ذلك أن الرسالة انطلقت من خلال أفواه أولئك الذين قالوها ومن خلال آذاننا نحن الذين استمعوا إليها قد فقدت قوتها للنفاذ في عالمنا وفي نفسنا؟

إن أولئك الذين قالوها - الكنيسة وخدامها في كل العصور - جعلوها مسألة ناموس وتراث، مسألة عادة وقناعة. لقد جعلوا منها شيئاً نحن نؤمن به ونحن نعرفه وحاولنا نحن اتباعه. إنها لم تعد تنفذ في عالمنا العادي. لقد أصبحت جزءاً من عالمنا العادي. إن كهنة الكلمة - شأنهم في هذا شأن الأنبياء الذين حاربهم إرميا في النص الذي أوردناه - كفوا عن أن يطلبوا وينادوا طالبين كلمة من (الرب). إنهم يزعمون أنها لديهم على انها من ممتلكاتهم، ولما كانت (كلمة الرب) لا يمكن على الإطلاق أن تكون امتلاكاً، فإن الكلمات التي يقولونها ليست كلمة من (الرب). لقد تلقيناها ولكن لما كانت قد تشوهت في أفواه الوعاظ، فإنها لقيت مقاومة في آذان المستمعين أي في آذاننا جميعاً. إننا نسمعها، لكننا لا نستطيع أن ندركها. ونحن كمسيحيين لا نرفضها، لكنها فقدت صوتها، ذلك الصوت الذي به تحدث (يهوه) إلى قلوب الأنبياء، ذلك الصوت الذي به تحدثت (الروح) إلى قلوب المريدين. إننا نسمع الكلمات التي قيلت من قبل. ولكننا لا نشعر بأنها تتحدث (إلى) موقفنا، ومن (داخل)

---

(٢٦) صاغ المؤلف هذه الجملة بصيغة خبرية لكنه وضع علامة الاستفهام في نهايتها ولهذا ترجمناها بصيغة استفهامية خاصة وأن الجملة التالية صاغها المؤلف على نحو استفهامي (المترجم).

عمق موقفنا. بل إنها قد تبعث شكوكاً تعذبنا وتسوقنا إلى أن نطلب على نحو عاطفي كلمة من (الرب) (ضد) ما نحن نتلقيناه على أنه (كلمة الرب) في (الإنجيل) وفي الكنيسة.

فما من كلمة من (الرب) سوى الكلمة التي تُنطق الآن. فكيف نستطيع نحن أن ننال مثل هذه الكلمة التي تُنطَق الآن وتقال لنا؟

ليس هناك إلا جواب واحد: بأن نجعل أنفسنا منفتحة عندما تأتي إلينا! وليس هذا سهلاً. إننا نحاول أن نقاوم هذا، وإذا كان هذا قوياً جداً بالنسبة لنا فإننا نحاول أن نزيّفه. قد نكون في موقف لا نستطيع أن نحرر فيه أنفسنا. لقد فات الوقت على هذا. ومن ثم فإن الكلمة من (الرب) تأتي ككلمة فيها حكم الدينونة ولا نستطيع أن نأخذها أو أن الكلمة التي تتأتى إلينا تتطلب تغييراً جذرياً في طرق حياتنا وفكرنا. وهذا لا نستطيع أن نحققه، ونحن نرتد إلى عاداتنا عن الخير والشر، عن الصواب والخطأ. أو أننا في شك وذنب ويأس، والكلمة تتأتّى لنا وتقول لنا إننا نستطيع أن نقول نعم لأنفسنا لأن نَعَماً أبدية قد قيلت لنا وعنا. لكننا نقاوم الكلمة التي تتطلب من الشجاعة لأن نقول نعم لأنفسنا لأننا في حب لشكنا وذنبنا ويأسنا.

(١٧)

الإبصار والسَّمَاع

[39]فَقَالَ يَسُوعُ: «لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هذَا الْعَالَمِ حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ». [40]فَسَمِعَ هذَا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيْضاً عُمْيَانٌ؟» [41]قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَاناً لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ. وَلكِنِ الآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ»

(يوحنا ٩: ٣٩- ٤١)

إن الكتاب المقدس الذي يضم معاً كلا العهدين القديم و الجديد [٢٧] مثل الكثير من الأدب الديني الآخر يتحدث مراراً وتكراراً عن (البصر)، (تعالوا وابصروا). هذه الكلمات من جانب المريد صاحب إنجيل يوحنا تدوي عبر كتابات الأنبياء والرسل. إننا (قد) أبصرنا: هذه هي رسالة الأناجيل الأربعة والرسائل الإنجيلية. وليس حقيقياً أن الإيمان الديني هو اعتقاد في الأشياء بدون بيّنة. وكلّ (بينة) تعني (الإبصار الكامل) [٢٨] ومطلوب منا أن (نبصر). إننا مع ما نبصره، ولهذا نحن نريد أن نرى ما نحبه، ما هو هام بالنسبة لنا. والناس العظام المؤمنون (بالله) أرادوا أن يروا (الله)، وموسى طلب هذا على أنه ذروة أفضال (يهوه) [٢٩] وإن إشعياء قد أصبح أقوى الأنبياء بعد أن رأى (الله) في المعبد[٣٠] ويسوع يبارك الأنقياء في القلب على أنهم الذين سوف يرون

---

(٢٧) النص الانجليزي يقول إن الإنجيل الذي يضم العهدين ولكن لما كان العهدان مطبوعين معاً باسم الكتاب المقدس فقد فضلنا هذا على أن نقول الإنجيل يضم العهدين لأن الإنجيل خاص بالعهد الجديد أما العهد القديم فتختص به التوراة (المترجم).

(٢٨) ويمكن ترجمة التعبير على أنه الاستبصار ففيه إحاطة (المترجم).

(٢٩) إنها أفضال (الله) العلي القدير: "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين" (الأعراف/ ١٤٣) (المترجم).

(٣٠) هل هي رؤية بالقلب؟ وذلك أن الرؤية قاصرة على الرسول الكريم محمد (ص): "ما كذب الفؤاد ما رأى (١١) أفتمارونه على ما يرى (١٢) ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤)" (النجم) بل أن الله عندما يكلم أحداً لا تكون هناك مشاهدة ويأتي الكلام حتى من وراء حجاب: "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم" (الشوري/ ٥١) (المترجم).

(الله) وفي الإنجيل الرابع [٣١] يقول (هو) عن (نفسه) إنه (هو) قد رأى (الآب) ومن رآه (هو) فقد رأى (الآب) أيضاً [٣٢] إن الصور المجازية حافلة بالتقوى يجري تصوير الملائكة والقديسين على أنهم أولئك الذين يبصرون (الله) وجهاً لوجه. والتحقق الأعظم، نهاية كل حركة وكل مسعى يجري تصويرها على أنها الرؤية الأبدية (لله).

ولكن الشكوك والتساؤلات تنبعث عندما ننظر في مأزقنا الإنساني الراهن. أليس الإيمان عكس الرؤية؟ هل يجب أن نؤمن بدون أن نبصر؟ ألم يبارك يسوع أولئك الذين لم يبصروا ومع ذلك فهم يؤمنون؟ ألم يتحدد الإيمان على أنه البينة عن الأشياء التي لا يجري استبصارها؟ وألم يكتب بولس: "إننا نمشي بالإيمان لا بالبصر"؟ إننا لا ننظر إلى الأشياء التي تُرى، بل للأشياء التي لا تُرى. ذلك أن الأشياء التي تُرى مؤقتة زمانية، لكن الأشياء التي لا تُرى أبدية. إن كل هذا يدل على أن الإيمان يجب أن يقوم على (السماع) لا على (الإبصار). أنتم (تسمعون) عن شئ لا تبصرونه. أنتم تؤمنون بمن يخبركم. إنكم تتقبلون كلمة السلاطين بمسكنة وبطاعة. إنكم تؤمنون بما يقوله الإنجيل لأن الإنجيل هو الذي يقوله. إنكم تتقبلون ما تعلمه (الكنيسة) لأن ما تتلقونه قامت الكنيسة بتعليمه. وأنتم تسمون كلمة (الإنجيل) والكنيسة (كلمة الله). إنكم تسمعون، إنكم تعتقدون، إنكم تطيعون، لكنكم لا تبصرون.

في القرون السابقة كان هناك صراع مستمر متواصل في الكنيسة بالنسبة للدلالة الدينية للسماع والإبصار. في البداية ساد الإبصار، ولكن بعد هذا تزايدت أهمية السماع وتزايدت. وأخيراً في (عصر الإصلاح) أصبح السماع هو المنتصر نصراً مظفراً. والأبنية الكنسية البروتستنتانية تشهد على هذا الانتصار. فهي صالات لسماع المواعظ وقد خلت من كل شئ يُرى من الصور والتماثيل، خلت من الأنوار والشبابيك الملونة، خلت من معظم أوجه النشاط الخاصة بالقربان المقدس. وحول مكتب الواعظ بُنيت غرفة للاستماع إلى كلمات

---

(٣١) إنجيل يوحنا (المترجم).

(٣٢) لابد أن المقصود هو الرؤية القلبية لا العينية (المترجم).

الناموس والإنجيل. والعين لم تستطع أن تجد لها مكانا لتستقر في التأمل. والسماع حل محل الإبصار، والطاعة حلت محل الرؤية.

غير أن يسوع يقول: "اتيت أنا إلى هذا العالم حت يبصر الذين لا يبصرون". والرسولي يقول: "إن ما قد (أبصرناه بعيوننا) والذي نظرناه نعلنه لكم". إن الإثنين كليهما لا يتحدثان عن المستقبل، بل عن شئ (قد) أبصراه ولا (يزالان) يبصرانه. ومن المؤكد أنهما لا يشعران على نحو ما شعر به اللاهوتيون القدماء والجدد من أن هناك صراعاً بين الإبصار والسماع، بين الإبصار والإيمان. لقد كتب الرسولي: ذلك هو ما رأيناه (و) ما سمعناه". ويقول يسوع "كل من (يبصر) (الابن) و(يؤمن) به (هو)". والأكثر مدعاة للاهتمام والدهشة: إن ذلك الذي قد أبصرناه بعيوننا كما جاء في إنجيلنا هو (الكلمة)، (الكلمة) الأبدية أو (اللوجوس) الذي فيه يتكلم (الله) والذى يمكن استبصاره من خلال أفعال الخلق والذي هو مرئي في (يسوع) الإنسان. إن الكلمة يمكن (استبصارها)، هذه ذروة وحدة السماع والإبصار، هذه هي الحقيقة التي يمكن أن تقيم جسراً بين أنصاف الحقائق البروتستنتانية والكاثوليكية.

إن الإبصار هو أكثر قوانا الطبيعية مدعاة للدهشة. إنه يتلقى النور، أول ما خُلق على الإطلاق، والإبصار مثل النور يقهر بالفعل الظلام أو السديم أو الفوضى. إنه يخلق لنا عالماً منظماً، أشياء متميزة عن بعضها وعنا نحن. إن الإبصار يظهر لنا ملاح الأشياء الفريدة والكل الأكبر الذي ينتمي لها. وأينما نبصر يتحول جانب من السديم الأصلي إلى إبداع. إننا نميز، إننا نتعرف، إننا نطلق أسماً، إننا نعرف. "أنا أبصر" - هذا يعني عند اليوناني "أنا أعرف"، ومن الإبصار تبدأ كل العلوم، وحتى يكون هناك إبصار يجب أن تكون هناك عودة دائماً. إننا نريد أن نسأل أولئك الذين قد أبصروا بعيونهم ونحن أنفسنا نريد أن نبصر بعيوننا. إن العين الإنسانية وحدها قادرة على أن ترى على هذا النحو، أن ترى عالماً في كل شئ صغير، وأن ترى كوناً (من) كل الأشياء لهذا فإن العين الإنسانية لا متناهية

في البحث ولا يمكن مقاومتها في القوة. إنها المتلازمة لنور الخلق.

لكن الإبصار يعني أكثر من خلق عالم. فحيث نبصر نحن نتوحد مع ما نبصره. إن الإبصار نوع من الوحدة. وكما الشعر قد وصفه فإننا (نعبّ) الألوان والأشكال، القوى والتعبيرات. إنها تصبح جزءاً من أنفسنا. إنها تعطي وفرة لشاعرية وحدتنا. وحتى لو كنا غير واعين بها فإنها تتدفق فينا، ولكن أحياناً نحن نلاحظها ونرحب بها ونطلب المزيد منها.

وليس كل الإبصار فيه هذا الطابع للوحدة. إذا نحن نظرنا إلى الأشياء ولاحظناها حينئذ لمجرد السيطرة عليها واستخدامها فلن تحدث أي وحدة حقيقية. إننا نحتفظ بها على مسافة. إننا نحاول أن ندخلها في قوتنا لاستخدامها لأغراضنا، كوسيلة لغاياتنا. لا يوجد حب في هذا النوع من الإبصار. إننا نلمح الموجودات التي سوف تخدمنا ببرود، إن لدينا تجاه تلك الأشياء التي نستخدمها مجرد نظرة، إما فضولية أو غير مكترثة، إما عاطفية أو عدوانية، إما معادية أو قاسية. هناك سوء استخدام في النظر إلى تلك الأشياء التي (نستخدمها). إن هذا الإبصار هو إبصار ينتهك ويَفصل. إنه نظرة الحشود التي تظهر في لوحات العصور الوسطى وهي تنظر إلى (المصلوب). ولكن حتى هذا النوع من الإبصار يخلق بعض الوحدة، رغم أنها وحدة من خلال الانفصال. لكن الإبصار الذي يوجد حقاً مختلف. ولغتنا لها كلمة عن هذا: الحدث. هذا يعني الإبصار (في). إنه إبصار صميمي، إنه إبصار يستولي ويتم-الاستيلاء عليه. إنه إبصار يصبح حاداً بالحب. وأفلاطون، معلم القرون، والذي رؤاه وكلماته قد أثرت على نحو عميق في الإنجيل الرابع [٣٣] والكنيسة عرف الإبصار الذي يوحّد. وهو يسمى الحب الذي يدفعنا إلى حدس أصيل "طفل المسغبة والوفرة". إنه الحب الذي يملأ حاجتنا بوفرة عالمنا. لكنه يملأنا على نحو أن الكثرة

(٣٣) إنجيل يوحنا (المترجم).

التي لا تنقطع ليست هي آخر ما نراه - مشهد يمزقنا. إن آخر ما نراه يكمن في ذلك الذي يوحد، والذي هو الأبدي (في) و(فوق) الأشياء المؤقتة الزمانية وفي هذه المشهد أراد أفلاطون أن يلقن أتباعه.

وهذا يفضي بنا إلى خاصية أخرى للإبصار، وهي أكبر خاصية له. إننا لا نبصر فحسب ما نراه، بل إننا نبصر دائماً شيئاً آخر معه ومن خلاله! إن الإبصار يخلق، إن الإبصار يوحد، وفوق كل شئ إن الإبصار يتجاوز ذاته.فإذ نحن نظرنا إلى حجر فإننا لا نرى مباشرة إلا الألوان والأشكال للجانب المتجه نحونا. ولكن مع ومن خلال هذا السطح المحدود نحن على وعي باستدارته، على وعي بامتداده وكتلة تركيب الشئ كله. إننا نصير إلى ما وراء ما نبصره. وإذا نحن نظرنا إلى حيوان نرى مباشرة ألوان جلده وأشكالها . ولكن مع هذا ومن خلال هذا نحن على وعي بتوتر وقوة عضلاته ونوازعه الداخلية التي يغطيها ويكشفها الجلد. إننا لا نبصر البقع اللونية، بل نرى كائناً حياً. ونحن إذا نظرنا إلى وجه إنساني فإننا نبصر الخطوط والأشكال، ولكننا مع هذا ومن خلال هذا نبصر شخصية فريدة لا يمكن مقارنتها والتي تكون تعبيراتها مرئية في وجهه، والذي يترك طابعه ومصيره آثاراً نفهمها والتي نستطيع فيها حتى أن نقرأ شيئاً من مستقبله. فمع ومن خلال الألوان والأشكال والحركات نبصر الصداقة والبرود، نبصر العداوة والتكريس، ندرك الغضب والحب، ندرك الأسى والفرح. إننا نبصر على نحو لا متناه أكثر مما نبصر عندما ننظر في وجه إنساني. ونحن نبصر حتى فيما وراء هذا إلى عمق جديد. مرة أخرى إن اللغة تعيننا عندما نتحدث عن التأمل. والتأمل يوحي إلينا بالأمل، يوحي بالتوجه إلى المستقبل إلى الاستشراف على الآتي، إلى الجذور العميقة للأشياء، إلى أساسها الإبداعي [٣٤] إننا نرى القوى الغامضة التي نسميها الجمال والحق والخيرية. إننا لا نراها على هذا النحو، إننا لا نستطيع أن

(٣٤)إن كلمة التأمل بالإنجليزية هيCon-template وتيليش يقول إنها تعني التوجه إلى المعبد، إلى مجال المقدس إلى المقدس إلى الجذور العميقة للأشياء، إلى أساسها الخلاق. وقد تصرفنا في الترجمة لكي نقرب المعنى الذي يقصده (المترجم).

نبصرها إلا في الأشياء وفي الأحداث. إننا نبصرها مع ومن خلال شكل وردة وحركات النجوم وصورة صديق. إننا (نستطيع) أن نغلق أعيننا، إننا نستطيع أن نصبح عمياناً. والبعض أعمى عن أي جمال والذي هو أكبر من مجرد شعور سار، والبعض أعمى عن أي حقيقة والتي هي أكبر من ملاحظة وإحصاء صحيحين، والبعض أعمى عن أي خيرية والتي هي أكبر من النفع. والبعض أعمى عن أي أساس والذي هو وحده هذه القوى والتي نسميها (المقدس). إنه الأقصى، إنه الدائم الذي نستطيع أن نبصره مع ومن خلال كل الأشياء، ومن ثم إنه غاية كل إبصار. إنه النور نفسه، ومن ثم فإنه ظلام لأعيننا. وفقط "مع ومن خلال" يمكننا أن نبصره، من خلال الأشياء والناس، من خلال الأحداث والصور. إن هذا الإبصار وعدم الإبصار في الوقت نفسه هما ما نسميه الإيمان. ما من أحد يستطيع أن يرى (الله)، ولكننا نستطيع أن نبصره "مع وخلال". هنا ينتهي الصراع بين الإبصار والسماع. إن الكلمة تقول لنا أن نبصر ومتى قد أبصرنا، ونحن ننطق بما قد رأينا (و) سمعنا. وفي الحالة التي أسميناها الإيمان فإن الصوت والرؤية توحدا وربما فإن هذا هو السبب الذي يحب (المقدس) أن يُعَبَّرُ عنه في الموسيقى أكثر من أي وسيط آخر. إن الموسيقى تعطي أجنحة لكليهما: الكلمة والصورة، وتتجاوزهما كليهما.

ولكن للمرة الثانية إننا مدعوون إلى الهبوط من التحليق في الأعالي إلى أسفل موقفنا الإنساني. وإنجيلنا يعتبرنا عمياناً، جميعنا. ويسوع يقول إننا عميان لأننا نعتقد أننا نبصر ولا نعرف أننا عميان، و(هو) يهدد بأننا سوف يُقذفَ بنا إلى مزيد من العماء إذا أصررنا أننا نبصر. والسؤال هو: أين من كل المواضع نستطيع أن نبصر وسوف نبصر في أساس الوجود جميعه؟ من يستطيع أن يقود تأملنا إلى المعبد، إلى المقدس نفسه؟

إن الإبصار يعطينا (عالماً)، نظاماً، وحدة الكثرة. لكننا نرى داخل هذا النظام، الفوضى، داخل الوحدة، الصراع الذي يهدد بانفجار العالم نفسه وإرجاعنا إلى ظلام السديم أو العماء القديم. وإن النظام والسديم

مختلطان معاً لدرجة أننا غالباً ما نشعر بالحيرة وأننا بلا أساس وبلا معنى، وأننا نرغب في أن نحتفظ بعيوننا مغلقة. إن الإبصار يوحدنا مع ما نبصره. ولكننا نرى أشياء عديدة وموجودات عديدة للغاية لا نريد أن نتوحد بها، ونحن إزاءها غير مكترثين أو معادين والتي هي غير مكترثة بنا أو معادية لنا، والتي هي منفّرة والتي نكره أن نراها لا لشيء سوى أن كل إبصار يوحد، حتى ولو كان من خلال الكراهية. وقد تكون حتى نفسنا الخاصة هي التي لا نريد أن نبصرها لأن صورتنا تنفّرنا ولأننا نكرهها إذا ما نحن أبصرنا بها. وليس في الحب بل في الكراهية نكون متحدين مع أنفسنا، وربما أننا نريد أن نحرم أنفسنا من أعيننا مثل أوديب [٣٥]، نحرم أنفسنا من عيوننا التي في البداية لم تبصر ما يجب أن تبصره. وأليس ذلك هو الذي نحب أن نبصره وذلك الذي نكره أن نبصره على نحو مختلط حتى أننا في الغالب نمدح افتكارنا من عدم الإبصار؟ إن الإبصار هو إبصار بكائنات ومن خلال كائنات في عمقها، في الخير والحق وفي أساسهما المقدس. ولكن ما هي الكائنات والصور التي سوف تقودنا إلى هذا المعبد؟ [٣٦] إن أولئك الذين أسماهم يسوع عمياناً آمنوا أنهم عرفوا الطريق إلى المعبد، الطريق إلى المقدس وأكثر الأماكن قداسة. إن المعابد العديدة في جميع أنحاء العالم تحتوي أشياء وصوراً بها ومن خلالها نستطيع أن نبصر (الله). ولكن ما نراه هو الأوثان، الجمال الذي يفتن ويرعب ويستولي على نحو مُغْرٍ أو القوة المدمرة التي تتطلب ما لا يمكن تحقيقه، وهي توعد بما لا يمكن إعطاؤه، وتعطي ما يرفع ويخفض في الوقت نفسه. والأمر على هذا النحو لأنها تُكَبِلنا في أنفسنا ولا تقودنا إلى ما يجاوزنا. إن عيوننا مقيدة بها، غالباً ما تكون مقيدة بالافتتان الشيطاني الذي نمارسه والذ ي به تستولي علينا. إننا نتأملها، ونتوجه إلى معابدها، إننا نتوحد بها في الاستسلام الذاتي، ونحن نتركها خاوية، يائسة، مدمَّرَة. هذا هو

---

(٣٥) في مسرحية (أوديب .. ملكا) لسوفوكليس اكتشف أوديب بأنه تزوج أمه دون أن يعرف هذا من قبل وأنه أنجب منها فلما تعرّف على الأمر خز عينيه بدبوس (المترجم).

(٣٦) أو هذا الأمل على نحو ما عرّبنا المسألة (المترجم).

الاغراء الكبير في الإبصار. وهذا هو السبب الذي جعل السماع مقابل الإبصار . إنه السبب الذي جعل الصور ينالها التدمير وأراد تكراراً، وجعل كل صورة محّرمة، ولماذا جرى إحراق المعابد وأصبح يطلق على (الله) (الخواء اللا متناهي). لكن هذا لن يكون الكلمة النهائية. إن الخواء يمكن أن يكون كلا النور والظلام، ونحن نريد النور، النور الذي هو الحياة والرؤية.

ويسوع نفسه كان يمكن أن يصبح وثناً، بطلاً قومياً ودينياً، يُفتن ويدمِّر. وهذا ما يريده الأتباع والجماهير أن يكون عليه (هو). لقد رأوه (هو)، لقد أحبوه (هو)، لقد رأوا به ومن خلاله (هو) - الخير والحق والمقدس نفسه. ولكنهم خضعوا لإغراء الإبصار. لقد تمسكوا بما يجب التضحية به إذا كان (الله) ستجري رؤيته بأي كائن فان ومن خلاله. وعندما ضحى (هو) (بنفسه) تلفتّوا يائسين مثل أولئك الذين دُمِّرت صورتهم ووثنهم. لكنه كان قوياً للغاية، لقد جذب (هو) أعينهم ثانية إليه (هو) ولكنه وهو الآن (هو) مصلوب. ولكنهم تحملوا هذا لأنهم رؤوا به ومن خلاله (هو) (الله) الذي هو (الله) حقاً. إن من قد رآه (هو) قد رأى (الآب): وهذ حق وحسب من (المصلوب). ولكنه عنه (هو) فإن الأمر (يكون) حقاً. إنه (هو) ليس الوحيد الذي ينظر في الحدس والتأمل ليس مطلوباً منا أن نحدق فيه (هو) كما يفعل البعض. ليس مطلوباً منا أن نشيح عن كل شئ من أجله (هو) لما يفعل البعض. ليس مطلوباً منا أن نُقلِع عن غزارة إبداعه (هو) كما يفعل البعض. ليس مطلوباً من أن نرفض الوحدة مع ما نبصره كما يفعل البعض. ولكن مطلوب منا أن نبصر بكل شئ ومن خلال كل شئ في العمق الذي فيه قد أظهر (هو) الطريق. إننا سوف نبصر فيه دون عرقلة بذلك الذي يحاول أن يبقينا، بعيداً عن العمق الأخير. وعندما نكلُّ من إبصار وفرة العالم بكل ما فيه من فوضى وكراهية وانفصال، تدميره الشيطاني، وإذا كنا عاجزين أيضاً عن أن ننظر في النور الذي يغشي نور الأساس الإلهي إذن دعونا نغلق أعيننا. وحينئذ قد يحدث أن نبصر صورة إنسان، ينظر إلينا بعيون العمق الإنساني اللا متناهي ولهذا بعيون القوة والحب الإلهيين. وهذه العيون تقول لنا: "هلموا وأبصروا".

(١٨)

الصلاة وتناقضها الظاهري

٢٦وَكَذَلِكَ الرُّوحُ أَيْضاً يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلَكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا. ٢٧وَلَكِنَّ الَّذِي يَفْحَصُ الْقُلُوبَ يَعْلَمُ مَا هُوَ اهْتِمَامُ الرُّوحِ لأَنَّهُ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ يَشْفَعُ فِي الْقِدِّيسِينَ.

(رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ٢٦ و ٢٧)

هذه الفقرة من الرسالة إلى أهل رومية عن (الروح) التي تشفع فينا "بأنّاتٍ لا يُنطق بها" تنتمي إلى أشد أقوال بولس غموضاً أو إلغازاً. إنها تعبر عن تجربة إنسان عرف كيف يصلي ولأنه عرف كيف يصلي قال إنه (لا) يعرف كيف يصلي. وربما نستمد من هذا الاعتراف من جانب الرسول نتيجة هي إن أولئك الذين من بيننا يتصرفون كما لو كانوا قد عرفوا كيف يصلون لا يعرفون كيف يصلون على الإطلاق. وبالنسبة لهذه النتيجة يمكننا أن نجد الكثير من البيِّنة في تجربتنا اليومية. إن الكهنة معتادون على الصلاة جهرة في جميع أنواع المناسبات، وبعضهم يهبون أنفسهم على نحو طبيعي إلى صلاة ما، وآخرون يفعلون هذا على نحو مصطنع وضد الذوق الحَسَن. ولس من غير المهم أن نعرف التوقيت الحق للصلاة والتوقيت الحق لعدم الصلاة. وهذا تحذير على هامش ما يود بولس أن يقوله، لكنه تحذير ضروري وخاصة بالنسبة للكهنة والناس العاديين والذين هم قادة في الكنيسة.

والخطوة التالية تفضي بنا أقرب إلى لُب مشكلة بولس: هناك نمطان رئيسيان من الصلاة، الصلاة المحددة الطقوسية الحرفية والصلاة التلقائية الحرة. وكلا الصلاتين تظهران حقيقة ما أكده بولس أننا لا نعرف "ما نصلي لأجله كما ينبغي". إن الصلاة الطقوسية غالباً ما تصبح آلية أو مبهمة غير مفهومة أو تصبح كليهما. وتاريخ الكنيسة يظهر أن هذا كان مصير حتى (صلاة الرب). وبولس على وجه اليقين عرف (أبانا) عندما كتب أننا لا نعرف كيف نصلي. وهذا لا يبرهن على أننا نعرف كيف نصلي عندما نظر ناموساً طقوسياً مستخلص من أنموذج الصلاة التي أداها يسوع لأتباعه.

ولكن إذا تحولنا من الصلاة الرسمية إلى الصلاة التلقائية فإننا لا نكون في وضع أفضل. فغالباً جداً أن الصلاة التلقائية هي حوار عادي مع (الله) ولكنه بالفعل حوار مع إنسان آخر نحكي له أموراً غالباً باستفاضة ونشكره ونطلب منه معروفاً. ومن المؤكد أن هذا لا يبرهن على أننا نعرف كيف نصلي.

إن الكنائس الطقوسية الحرفية التي تستخدم الصيغ الكلاسيكية يجب أن تسأل نفسها ما إذا كانت تمنع الناس في زماننا (نحن) من الصلاة على نحو ما يستطيعون أن يؤدوها بأمانة. والكنائس غير الطقوسية وغير الحرفية التي تعطي الحرية لإقامة الصلوات في أي وقت يجب أن تسأل نفسها ما إذا كانت تضفي صبغة دنيوية على الصلاة وتحرمها مما فيها من أسرار.

والآن دعونا نتخذ خطوة ثالثة، في لب تفكير بولس. سواء في الوقت المناسب أم لا، سواء كانت الصلاة صلاة وفق طقوس أم صلاة تلقائية فإن السؤال الحاسم هو ما إذا كانت الصلاة ممكنة أصلاً. وبالرجوع إلى بولس نتبين أنها مستحيلة من الناحية البشرية. علينا ألا ننسى هذا إطلاقاً ونحن نصلي: إننا نؤدي شيئاً مستحيلاً من الناحية البشرية. عندما نتحدث إلى شخص ما ليس هو شخصاً آخر إنما نتحدث إلى من هو أقرب إلينا من أنفسنا إنما نتحدث إلى شخص ما لا يمكن على الإطلاق أن يكون موضوع خطابنا لأنه دائماً هو ذات، دائماً يخلق. إننا نقول شيئاً له (هو) ذلك الذي لا يعرف فحسب ما نخبره (هو) به بل يعرف أيضاً جميع النزعات اللاشعورية الخفية التي تنمو منها كلماتنا الواعية. وهذا هو السبب الذي يجعل الصلاة مستحيلة من الناحية البشرية. ومن خلال هذه البصيرة يدلي بولس بقول غامض أسراري عن سؤال الصلاة الحقة: إنه (الله) نفسه هو الذي يصلي من خلالنا عندما نصلي له (هو). إن (الله نفسه) فينا: وهذا هو معنى (الروح). إن (الروح) هي كلمة أخرى عن (إن الله حاضر) بقوة تزعزع وتلهم وتحول. إن شيئاً ما فينا ليس هو نحن أنفسنا يتوسط أمام (الله) من أجلنا. إننا لا نستطيع أن نقيم جسراً على الهوة بين (الله) وأنفسنا حتى

من خلال أشد الصلوات تكثيفاً وتكراراً، إن الهوة بين (الله) وأنفسنا لا يمكن إقامة جسر عليها إلا (بالله). ومن ثم فإن بولس يعطينا الصورة المدهشة (لله) وهي الشفاعة لنا أمامه (هو نفسه). مثل هذه الرموز - مثل كل الرموز المتعلقة (بالله) - هي من الأمور الحافلة بالعبث إذا أخذناها بمعناها الحرفي. إن رمز (الله) الشافع أمام (نفسه) من أجلنا يقول إن (الله) يعرف عن الإنسان أكثر من ذلك الذي نحن نعيه. إنه "يفحص القلوب". هذه كلمات تتنبأ ببصيرة اليوم التي نحن فخورون بها بحق من أن النور الضئيل للوعي ينبثق على أساس متسع من الدوافع والصور اللاشعورية. فإذا كان الأمر على هذا النحو فمن ذلك الآخر الذي يستطيع أن يستحضر وجودنا الكلي أمام (الله) سوى (الله) (نفسه) الذي وحده يعرف الأشياء العميقة في نفسنا؟

قد يساعدنا هذا أيضاً على أن نفهم الجانب الأكثر أسرارية وغموضاً من وصف بولس للصلاة ألا وهو أن (الروح) تتشفع بآهات عميقة جداً من أجل الكلمات. ولأن كل صلاة هي وحسب مستحيلة بشرياً، ولأنها وحسب تستحضر الطبقات الأعمق لوجودنا. إزاء (الله) عن مستوى الوعي، فإن شيئاً ما يحدث فيها لا يمكن التعبير عنه في الكلمات. إن الكلمات التي تتخلق (من) حياتنا الواعية يجري استخدامها (في) حياتنا الواعية ليست هي ماهية الصلاة. إن ماهية الصلاة هي فعل (الله) الذي يعمل فينا ويرفع وجودنا الكلي إليه (هو). والطريقة التي يتم فيها هذا يسميها بولس "التنهّد". إن التنهد هو تعبير عن ضعف وجودنا البشري. وفي إطار التنهيدات الصامتة وحدها يمكننا أن نقترب من (الله)، بل إن هذه التنهيدات هي عمله (هو) فينا.

وهذا يرد بشكل نهائي عن سؤال يسأله في الغالب المسيحيون: أي صلاة هي الأدق في علاقتنا (بالله)؟ هل هي الصلاة التي نشكر فيها أو الصلاة التي فيها نتضرع، أو الصلاة التي تتشفع أو صلاة الاعتراف أو صلاة الحمد؟ إن بولس لا يطرح مثل هذه الفروق. إنها تعتمد على الكلمات، لكن أنّة (الروح) فينا عميقة جداً عن الكلمات وعن تفرقة أنواع الصلاة. إن الصلاة الروحية هي الرفعة إلى (الله) في قوة (الله)

وهي تشمل كل أشكال الصلاة.

وهناك كلمة أخيرة إلى أولئك الذين يشعرون بأنهم لا يستطيعون أن يجدوا كلمات للصلاة ويظلون صامتين إزاء (الله). قد يكون هذا نقصاً في (الروح). وقد يكون هذا أيضاً أن صمتهم هو (صلاة) صامتة، أي الأنّات التي هي عميقة جداً تستعصي على الكلمات. إذن فإنه (هو) ذلك الذي يفحص قلوب الناس يعرف ويسمع.

القسم الثالث

الوجود الجديد .. تحققًا

(١٩)

معنى الفرح

١عِنْدَمَا رَدَّ الرَّبُّ سَبْيَ صِهْيَوْنَ صِرْنَا مِثْلَ الْحَالِمِينَ. ٢حِينَئِذٍ امْتَلأَتْ أَفْوَاهُنَا ضِحْكاً وَأَلْسِنَتُنَا تَرَنُّماً. حِينَئِذٍ قَالُوا بَيْنَ الأُمَمِ: [إِنَّ الرَّبَّ قَدْ عَظَّمَ الْعَمَلَ مَعَ هَؤُلاَءِ]. ٣عَظَّمَ الرَّبُّ الْعَمَلَ مَعَنَا وَصِرْنَا فَرِحِينَ. ٤ارْدُدْ يَا رَبُّ سَبْيَنَا مِثْلَ السَّوَاقِي فِي الْجَنُوبِ. ٥الَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالدُّمُوعِ يَحْصُدُونَ بِالابْتِهَاجِ. ٦الذَّاهِبُ ذَهَاباً بِالْبُكَاءِ حَامِلاً مِبْذَرَ الزَّرْعِ مَجِيئاً يَجِيءُ بِالتَّرَنُّمِ حَامِلاً حُزَمَهُ. (مزمور ١٢٦)

٢٠اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلَكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ. ٢١اَلْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتِ الطِّفْلَ لاَ تَعُودُ تَذْكُرُ الشِّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ. ٢٢فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ عِنْدَكُمُ الآنَ حُزْنٌ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ. (يوحنا ١٦: ٢٠- ٢٢)

١١كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ.
(يوحنا ١٥: ١١)

إن الإنجيل يزخر بالنصائح لكي نبتهج. وكلمة بولس إلى أهل فيلبي "مرة أخرى سوف أقول: "ابتهجوا" تمثل عنصراً حاضراً أبداً في الديانة الإنجيلية. فبالنسبة لقوم العهد القديم وقوم العهد الجديد يعد نقص الفرح نتيجة انفصال الإنسان عن (الله)، وحضور الفرح هو نتيجة إعادة الوحدة مع (الله).

إن الفرح مطلوب، ويمكن منحه. إنه ليس شيئاً يملكه المرء ببساطة. إنه ليس شيئاً يسهل نواله. إنه وبل لقد كان دائماً شيئاً نادراً ونفيساً. ولقد كان مشكلة عويصة بين المسيحيين. وهناك اتهام موجه إلى المسيحيين بأنهم يقوّضون فرح الحياة، هذه الهبة الطبيعية لكل مخلوق. وإن أعدى

أعداء المسيحية من المعاصرين ألا وهو فريدريك نيتشه وهو نفسه ابن كاهن بروتستنتي قد أعرب عن حكمه على يسوع بهذه الكلمات: "على أتباعه أن يبحثوا عن مزيد من الكفارة". يجب أن نخضع أنفسنا للقوة النافذة لهذه الكلمات ونسأل أنفسنا: "هل نقص الفرح لدينا يرجع إلى حقيقة أننا مسيحيون، أم إلى حقيقة أننا لسنا مسيحيين بما فيه الكفاية؟" ربما نستطيع أن ندافع عن أنفسنا باقتناع ضد النقد من أننا أناس يكرهون الحياة، والذين سلوكهم اتهام مستمر للحياة. ربما نستطيع أن نبين أن هذا هو تشويه للحقيقة.

ولكن دعونا أن نَكُنْ أمناء؟ أليس هنك العديد من المسيحيين - الكهنة وطلبة اللاهوت، وأصحاب الأناجيل والمبشرين، والمتعلمين المسيحيين والعلماء الاجتماعيين والعاديين الأتقياء والنساء العاديات التقيات حتى الأطفال الذين آباؤهم من أمثال هؤلاء الناس - يحيط بهم جو الأعباء والصرامة الجائرة ونقص الفكاهة والسخرية عن أنفسنا؟ إننا لا نستطيع أن ننكر هذا. ونقادنا خارج الكنيسة على حق. ونحن أنفسنا يجب أن نكون منتقدين أكثر منهم ولكن منتقدون على مستوى أعمق.

إننا كمسيحيين نعرف صراعاتنا الباطنية بالنسبة لتقبل الفرح أو نبذه. إننا شكاكون في هبات الطبيعة التي تساهم في الفرح، لأننا شكاكون في الطبيعة ذاتها، وذلك بالرغم من أننا نعترف بأنّها خلق (إلهي)، نعرف ما تحدث به (الله) عن خلقه (هو): "أنظروا، إنه حسن جداً" [٣٧] إننا نشك في إبداعات الثقافة التي تساهم في الفرح لأننا شكاكون في إبداعية الإنسان، رغم أننا نعترف بأن (الله) قد أمر الإنسان أن يزرع حبة الأرض التي سخرها (هو) له. وحتى لو تغلبنا على شكوكنا وأكدنا وتقبلنا هبات الطبيعة وإبداعات الثقافة فغالباً ما نفعل هذا بضمير مؤرق. إننا نعرف أننا (يجب) أن

(٣٧) التعبير القرآني العظيم في هذا الصدد: "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغه" (البقرة/ ١٣٨) (المترجم).

نكون أحراراً بالنسبة (للفرح)، وكما قال بولس: "كُلٌ لنا"، لكن شجاعتنا هي أدنى من معرفتنا. إننا لا نجرؤ أن نؤكد عالمنا وأنفسنا، وإذا جرؤنا، للحظة شجاعة، نحاول التفكير عنها بلوم النفس والعقاب الذاتي بشتى الأشكال، ونحن نهيل على أنفسنا نقداً لاذعاً مستمراً من أولئك الذين لم يجرؤوا على الإطلاق. لهذا فإن الكثيرين من المسيحيين يحاولون أن يوفقوا .. إنهم يحاولون أن يخفوا شعورهم بالفرح، أو يحاولون أن يتجنبوا الأفراح، والتي تكون شديدة، لكي يتجنبوا الاتهامات الذاتية التي هي شديدة الوقع. وعلى هذا النحو نجد تجربة كتب الفرح، والذنب بشأن الفرح في الجماعات المسيحية، وكاد هذا أن يسوقني إلى الخروج على المسيحية. وما يسمح به من الفرح في هذه الجماعات هو شئ هزيل مقصود أن يكون طفولياً لا إثارة فيه ولا وجد فيه، إنه لا لون له وهو خطر، بدون ذرى وبدون أعماق.

ومن الصعب أن ننكر أن هذا هو حال الأمور في عديد من الكنائس المسيحية. ولكننا الآن نسمع السؤال من كلا الجانبين المسيحي وغير المسيحي: أليس الفرح كما هو مشاهد في (الإنجيل) شئ مختلف تماماً عن فرح الحياة، والذي هو مُفتقد عند الكثيرين من المسيحيين؟ ألم يتحدث صاحب المزامير وبولس ويسوع كما في الإنجيل الرابع [٣٨] عن الفرح الذي يتجاوز فرح الحياة الطبيعي؟ ألم يتكلموا عن الفرح في (الله)؟ أليس قرار أن يكون المرء مسيحياً هو قرار من أجل الفرح في (الله) بدل القرار من أجل الفرح للحياة؟

الجواب الأول والأبسط على هذه الأسئلة هو أن الحياة هي حياة (الله)، و(الله) هو (الأساس) الإبداعي للحياة. إنه (هو) بالقطع أكبر من أي سيرورة حياة. لهذا فإنه ما من صراع يكون ضرورياً بين الفرح في (الله) والفرح للحياة. لكن الجواب الأول - وكم هو عظيم ومُفرح! - ليس كافياً، لأن "فرح الحياة" قد يعني أشياء عديدة.

---

(٣٨) إنجيل يوحنا (المترجم)

يبدو أن الفرح هو عكس الألم. لكننا نعرف أن الألم و الفرح يمكن أن يتواجدا معاً. ليس الفرح بل اللذة هي التي تكون مقابل الألم. هناك أناس يؤمنون بأن حياة الإنسان هي هرب مستمر من الألم وسعي دؤوب من أجل اللذة. و أنا لم أر مطلقاً كائناً إنسانياً يكون هذا صادقاً بالنسبة له. إنه لا يصدق إلا عن الكائنات التي فقدت إنسانيتها، إما من خلال التفكك الكامل أو من خلال الألم العقلي. إن الكائن الإنساني العادي قادر على التضحية باللذات و أن يأخذ الألم على عاتقه من أجل واع، من أجل إنسان ما أو شئ ما يحبه ويستحق منه الألم و التضحية. و هو يستطيع أن يغض النظر عن كلا الألم واللذة لأنه متجه لا إلى لذته بل تجاه الأشياء التي يحبها أو الذي يريد أن يتوحد معه. فإذا رغبنا شيئاً بسبب اللذة التي قد نحصل عليها، فإننا نحصل على الفرح. فإذا حاولنا أن نجد شيئاً ما لكي نتجنب الألم، فإننا قد نتجنب الألم، لكننا لن نتجنب الأسى. فإذا حاولنا أن نستخدم إنساناً ما لحمايتنا من الألم فإنه قد يحمينا من الألم لكنه لن يحمينا من الأسى. (يمكن) تقديم اللذات، و(يمكن) تجنب الألم إذا ما نحن استخدمنا أو أسأنا استخدام الآخرين لكن الفرح لا يمكن إحرازه والأسى لا يمكن قهره بهذه الطريقة. إن الفرح لا يكون ممكناً إلا عندما نساق نحو الأشياء و الأشخاص بسبب ما هم عليه وليس بسبب ما يمكن أن نحصل عليه منهم. إن الفرح بعملنا يفسد عندما نؤديه لا بما ننتجه ولكن بسبب اللذات التي يمكن تزودنا بها، أو الألم ضد ما يمكن أن يحمينا. إن اللذة بالنسبة لواقعة أنني (أنا) ناجح يفسد الفرح بالنسبة للنجاح ذاته. و إن فرحنا بالنسبة لمعرفة الحقيقة ومعايشة الجمال يفسد إذا ما استمتعنا لا بالحقيقة و الجمال بواقعة أنني (أنا) هو الذي يستمتع بهما.

إن القوة يمكن أن تمنحنا فرحاً إذا كانت متحررة من اللذة عن تملك القوة أو إذا كانت هذه طريقة إبداع شئ له قيمة. و إن علاقات الحب وهي أكثر العلاقات وضوحاً بين الجنسين، تظل بدون فرح إذا استخدمنا الشخص الآخر كوسيلة للذة أو كوسيلة لتجنب الألم. و هذا يشكل تهديداً لكل العلاقات الإنسانية. و لا يعد القانون خارجياً ذلك القانون الذي يحذرنا من أشكال معينة من تلك العلاقات، ولكن الحكمة المتولدة من

التجارب الماضية هي التي تقول لنا أن بعض هذه العلاقات قد تعطينا اللذة، ولكنها لا تعطي فرحاً. إنها لا تعطي فرحاً لأنها لا تحقق ما نحن عليه، وذلك الذي نحن نتوق إليه. وإن كل علاقة إنسانية خالية من الفرح حيث أن الشخص الآخر لا يجري البحث عنه بما هو عليه في ذاته بل بسبب اللذة التي يمكن أن يعطيها لنا والألم الذي يمكن أن يحمينا منه.

إن البحث عن اللذة لذات اللذة يعني تجنب الواقع، واقع البشر الآخرين وواقع أنفسنا. ولكن تحقيق ما نحن عليه حقاً هو وحده الذي يستطيع أن يعطينا الفرح. إن الفرح ليس إلا معرفة إن وجودنا يتحقق في وجودنا الحق، في مركزنا الشخصي. وهذا التحقق لا يكون ممكناً إلا إذا وحَّدنا أنفسنا بما عليه الآخرون حقاً. إنه هو الواقع الذي يعطينا الفرح، والواقع وحده. و(الإنجيل) يتحدث كثيراً جداً عن الفرح لأنه أكثر الكتب جميعاً واقعية. "ابتهجوا!" ذلك يعني: "انفذوا مما (يبدو) أنه حقيقي إلى ما هو حقيقي (حقاً)". وإن مجرد اللذة في أنفسكم وفي كل البشر الآخرين يظل في حيز الوهم عن الحقيقة. إن الفرح يتولد من التوحد مع الحقيقة ذاتها.

وجذر من جذور الرغبة في اللذة هو الشعور بالخواء وألم العبء الناجم منه. إن الخواء هو نقص في الارتباط بالأشياء والأشخاص والمعاني، بل إنه حتى نقص في ارتباطنا بأنفسنا. لهذا نحن نحاول أن نهرب من أنفسنا وعزلة أنفسنا، ولكننا لا نصل إلى الآخرين، ولا نصل إلى عالمهم في علاقة أصيلة. ومن ثم نستخدمهم لنوع من اللذة يمكن أن نسميها (اللهو). ولكنها ليست النوع الخلاق للهو المرتبط عادة باللعب، إنه بالأحرى لهو ضحل، إنه إلهاء، طريقة شرهة (لتملك اللهو). وليس من قبيل الصدف إنه ذلك النوع من اللهو الذي يمكن المتاجرة به وتسويقه لأنه قائم على ردود أفعال محسوبة بدون عاطفة، بدون مخاطرة، بدون حب. ومن بين كل المخاطر التي تهدد حضارتنا فإن هناك خطراً من أكثر الأشياء خطورة. الهرب من خواء الإنسان من خلال (اللهو) الذي يجعل الفرح مستحيلاً.

ابتهجوا! هذه النصيحة الإنجيلية نحن محتاجون إليها أكثر لأولئك الذين لديهم قدر ضئيل من اللذة وكثير من الألم. وغالباً ما يكون الأسهل أن نوحّد الألم بالفرح عن أن نوحّد اللهو بالفرح.

فهل المطلب الإنجيلي للفرح يحظر اللذة؟ هل الفرح واللذة كل منهما يستبعد الآخر؟ كلاً بالمرة! إن تحقق لب وجودنا لا يستبعد الإنجازات الجزئية والهامشية. ويجب أن نقول هذا بالتأكيد نفسه فيما قد وضعنا الفرح واللذة في تعارض. يجب ألا نتحدى فحسب أولئك الذين يبحثون عن اللذة لذات اللذة، بل أيضاً أولئك الذين يرفضون اللذة لأنها لذة. إن الإنسان يستمتع بالمأكل والمشرب، فيما يجاوز مجرد الحاجة الحيوانية لهما. إن هذا تحقق جزئي دائم التكرار من أجل مسعاه للحياة، لهذا فإنه لذة وهو يعطي فرحاً بالحياة. إن الإنسان يستمتع باللعب والرقص، يستمتع بجمال الطبيعة وما في الحب من وَجد. إنها جميعاً تحقق بعضاً من أشد احتياجاته الشديدة للحياة، لهذا فإنها لذة وهي تعطي فرحاً للحياة. وإن الإنسان ليتمتع بقوة المعرفة وسحر الفن. إنهما يحققان له بعضاً من أسمى احتياجاته للحياة، ومن ثم فهما لذة وهما يعطيان الفرح. وإن الإنسان ليستمتع بتجمع الناس في الأسرة والصداقة والجماعة الاجتماعية وهم يحققون احتياجات أساسية للحياة، ومن ثم فهم لذة وهم يعطون فرحاً للحياة.

ومع هذا في كل هذه العلاقات ينبعث التساؤل: هل طريقتنا في أن تكون لنا هذه اللذات صحيحة أم خاطئة؟ هل نستخدمها من أجل اللذة أو لأننا نريد أن نتوحّد في الحب مع كل ما ننتمي إليه؟ إننا لا نعرف على الإطلاق على وجه اليقين. وإن أولئك الذين هم من بيننا مع أولئك الذين في التاريخ الماضي للمسيحية الذين لهم ضمير يؤرقهم يفضلون أفكار اللذات رغم أنهم يتأسسون على نحو حسن بخلق اللذة نفسها. إنهم يخفون قلقهم وراء المحظورات الأبوية أو الاجتماعية أو الإكليريكية، وهم يسمون هذه المحظورات أوامر (إلهية). إنهم يبررون خوفهم من تأكيد فرح الحياة بالاستجابة لضمائرهم، وهم يسمونه صوت (الله)، أو بالاستجابة لاحتياج النظام والسيطرة على النفس وعدم

الأنانية ويسمونها "محاكاة المسيح". ولكن يسوع - على عكس يوحنا المعمداني - سماه نقاده النَّهِم والسكِّير. وفي كل تلك التحذيرات ضد اللذة، اختلطت الحقيقة باللا حقيقة. فطالما أنها تقوى مسئوليتنا هي حقة، وطالما أنها تستقطع فرحنا هي خاطئة. لهذا دعوني أطرح معياراً آخر لتقبل اللذات أو رفضها، المعيار الوارد في نصنا: إن اللذات التي تكون حسنة هي التي تتمشى مع الفرح، وإن اللذات التي تكون سيئة هي التي تمنع الفرح. وفي ضوء هذا المعيار يجب أن نخاطر بتأكيد اللذات حتى لو ثبت أن مخاطرتنا هي خاطئة. لن يكون المرء مسيحياً برفض اللذة أكثر ممن يتقبل اللذة. ودعونا لا نَنْسَ أن الرفض يتضمن رفض الخلق، أو على نحو ما أسماه آباء الكنيسة تجديفاً في حق الله - الخلاق. على كل مسيحي أن يعي حقيقة يعيها جيداً الكثيرون ممن هم ليسوا مسيحيين: إن قمع فرح الحياة يفضي إلى كراهية الحياة، إما سراً وإما جهراً. وقد يفضي الأمر إلى تدمير ذاتي كما تبرهن على هذا العديد من الأمراض الجسمانية والعقلية.

إن الفرح لهو أكثر من اللذة، وهو أكثر من السعادة. إن السعادة هي حالة للعقل، تدوم فترة أطول أو أقصر من الزمن وهي تعتمد على ظروف عديدة خارجية وداخلية. وفي المنظور القديم هي هبة من الآلهة التي تعطيها أو تأخذها ثانية. ولقد جاء في الدستور الأمريكي: "إن اقتفاء العادة" هو حق إنساني أساسي. وفي النظرية الاقتصادية فإن أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس هو غرض السلوك الإنساني. وفي قصص الجنيات "لقد عاشوا في سعادة وهناء للأبد" إن السعادة يمكن أن تتحمل قدراً كبيراً من الألم ونقص اللذة. ولكن السعادة لا تستطيع أن تتحمل نقص الفرح. وذلك أن الفرح هو التعبير عن تحققنا الماهوي والمحوري. وما من إشباعات ثانوية أو ظروف مفضلة يمكن أن تحل محل الإشباع المحوري. وحتى في حالة التعاسة يمكن لفرح كبير أن يحول التعاسة إلى سعادة. فما هو - إذن - هذا الفرح؟

دعونا في البداية نسأل ما هو عكس الفرح. إنه الأسى. إن الأسى هو

شعور بأننا محرومون من إشباعنا المحوري بأن نحرم من شئ ينتمي إلينا وهو ضروري لإشباعنا وتحققنا. قد نُحرم من الأقارب والأقارب الأقرب إلينا، قد نُحرم من عمل إبداعي ومجتمع مساند يعطياننا معنى للحياة وبيتنا والشرف والحب والصحة الجسمانية أو العقلية ووحدة شخصيتنا والضمير الحسن. وكل هذا يفضي إلى العزلة، أسى الوهن، أسى الاتهام الذاتي، ولكن هذا هو بالضبط نوع الموقف الذي قال فيه يسوع لمريديه إن فرحه (هو) سيكون معهم وإن فرحهم سوف يكون كاملاً، كما يسميه بولس، والأسى يمكن أن يكون "أسى العالم" الذي ينتهي في موت اليأس النهائي ويمكن أن يكون أسى (إلهياً) يقضي إلى تحول وفرح. وذلك أن في الفرح شيئاً داخل ذاته يتجاوز الفرح والأسى. وهذا الشئ يسمى البَرَكة أو النعمة.

إن البَرَكة أو النعمة هي العنصر الأبدي في الفرح، وهي التي تمكن الفرح من أن ينطوي في ذاته الأسى الذي منه تنبعث والذي تأخذه في ذاته. وفي الموعظة على الجبل يقول يسوع وهو يتحدث عن أشكال الغبطة [٣٩]: ٣«طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. ٤طُوبَى لِلْحَزَانَى لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ. ٥طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ. ٦طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. ٧طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ. ٨طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ. ٩طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ. ١٠طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. ١١طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ مِنْ أَجْلِي كَاذِبِينَ. وهو يقول لهم: ١٢اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا [٤٠] إن الفرح مع الأسى ممكن بالنسبة لهؤلاء المباركين، لأولئك الذين أصبح الفرح فيهم له بعد ما هو أبدي.

(٣٩) أورد بول تيليش جملتين مقتضبتين من الموعظة وفضلنا أن نورد النص كاملاً من إنجيل متى حتى تتضح الفكرة كاملة وذلك في الأصحاح الخامس الآيات ٧ - ١١ وهي الآيات التي تبدأ بكلمة طوبى المعبرة عن الغبطة وهي تكون في مجموعها جميع أنواع الغبطات (المترجم).

(٤٠) الآية ١٢ من الأصحاح الخامس من إنجيل متى (المترجم).

هنا يجب علينا مرة أخرى أن نرد على أولئك الذين يهاجمون المسيحية لأنهم يعتقدون أنها تدمر فرح الحياة. وفي ضوء (مجموعة الغبطات والتي تبدأ آياتها في إنجيل متى بكلمة طوبى) فإنهم يقولون أن المسيحية تقتلع فرح (هذه) الحياة بأن تشير إلى حياة أخرى وتُعَدِّلها. بل إنهم حتى يتحدون البركة في الحياة الموعودة كشكل مُرَفَّه من البحث عن اللذة في الحياة المستقبلية. ومرة أخرى يجب أن نعترف بأن لدى كثير من المسيحيين الفرح الذي من هذا النوع مؤجل إلى ما بعد الموت، وأن هناك كلمات إنجيلية يبدو أنها تفرد هذا الرد. ومع هذا، فإن الأمر خاطئ. إن يسوع سوف يعطي فرحه (هو) لمريديه (الآن). إنهم سوف يحصلون عليه بعد أن يتركهم (هو) وهذا يعني في (هذه) الحياة. وبولس يسأل أهل فيلبي أن يكون لهم الفرح (الآن). والأمر لا يمكن أن يكون على نحو آخر لأن البركة هي التعبير عن التحقق الأبدي من قِبَل الله. مبارك اولئك الذين يشاركون في هذا التحقق هنا والآن. ومن المؤكد أن التحقق الأبدي يجب رؤيته ليس فقط على أنه أبدي والذي هو في الحاضر، بل أيضاً على أنه أبدي والذي هو في المستقبل. ولكن إذا لم تجر رؤيته في الحاضر فإنه لا يمكن رؤيته على الإطلاق.

وهذا الفرح له في ذاته عمق البركة المطلوبة والموعودة في (الإنجيل). إن الفرح يحتفظ في ذاته عكسه ألا وهو الأسى. إنه يقدم الأساس للسعادة واللذة. إنه حاضر في كل مستويات سعي الإنسان للتحقق أو الإشباع أو الإنجاز. إنه يكرّس ويوجه هذه المستويات. إنه لا ينقص أو يضعف هذه المستويات. إنه لا يستبعد مخاطر وأخطار فرح الحياة. إنه يجعل فرح الحياة ممكناً في اللذة والألم، في السعادة والتعاسة، في الوجد والأسى. وحيث يوجد الفرح، يوجد الإشباع أو التحقق أو الإنجاز. وحيث يوجد الإشباع يوجد الفرح. في الإشباع والفرح فإن الهدف الباطني للحياة، معنى الخلق، ونهاية الخلاص، نكون قد نلناه.

(٢٠)

اهتمامنا الأقصى

[٣٨]وَفِيمَا هُمْ سَائِرُونَ دَخَلَ قَرْيَةً فَقَبِلَتْهُ امْرَأَةٌ اسْمُهَا مَرْثَا فِي بَيْتِهَا. [٣٩]وَكَانَتْ لِهَذِهِ أُخْتٌ تُدْعَى مَرْيَمَ الَّتِي جَلَسَتْ عِنْدَ قَدَمَيْ يَسُوعَ وَكَانَتْ تَسْمَعُ كَلاَمَهُ. [٤٠]وَأَمَّا مَرْثَا فَكَانَتْ مُرْتَبِكَةً فِي خِدْمَةٍ كَثِيرَةٍ فَوَقَفَتْ وَقَالَتْ: «يَا رَبُّ أَمَا تُبَالِي بِأَنَّ أُخْتِي قَدْ تَرَكَتْنِي أَخْدِمُ وَحْدِي؟ فَقُلْ لَهَا أَنْ تُعِينَنِي!» [٤١]فَأَجَابَ يَسُوعُ: «مَرْثَا مَرْثَا أَنْتِ تَهْتَمِّينَ وَتَضْطَرِبِينَ لأَجْلِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ [٤٢]وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى وَاحِدٍ. فَاخْتَارَتْ مَرْيَمُ النَّصِيبَ الصَّالِحَ الَّذِي لَنْ يُنْزَعَ مِنْهَا».

(لوقا١٠: ٣٨- ٤٢)

إن الكلمات التي تحدث بها يسوع إلى مَرَثا تنتمي إلى أكبر كل الكلمات شهرة في (الإنجيل). ولقد أصبحت مَرَثا ومريم رمزين لموقفين ممكنين تجاه الحياة، أصبحتا رمزين لقوتين في الإنسان والبشر ككل، أصبحتا رمزين لنوعين من الهم أو الاهتمام. إن مَرَثا مهمومة بعدة أشياء، ولكنها كلها أشياء متناهية، خارجية، مؤقتة. ومريم مهمومة بشئ واحد، هو لا متناه، أقصى، دائم.

إن طريقة مَرَثا ليست خسيسة، بل بالعكس، إنها الطريقة التي تحافظ على العالم في سيرورته. إنها القوة الدافعة التي تحافظ على الحياة والثقافة وتثريهما. وبدونها ما كان يمكن ليسوع أن يتحدث إلى مريم، وبدونها ما كان يمكن لمريم أن تنصت ليسوع. ولقد حدث مرة أنني استمعت إلى موعظة مخصصة لتبرير مَرَثا وتمجيدها. يمكن أن يحدث هذا. هناك هموم متعددة في حياتنا وفي الحياة الإنسانية بصفة عامة تقتضي الانتباه، والتكريس، والعاطفة. لكنها لا تقتضي الانتباه (اللا متناهي) والتكريس (غير المشروط) والعاطفة (القصوى). إنها هامة وغالباً هامة جداً بالنسبة لكم ولي ولكل البشرية. لكنها ليست هامة (على نحو أقصى). ولهذا فإن يسوع لا يثني على مَرَثا بل على مريم. لقد اختارت الشئ الحق، الشئ الواحد الذي يحتاج إليه الإنسان، الشئ الوحيد للاهتمام الأقصى لكل إنسان.

إن ساعة أداء الطقوس الدينية في الكنيسة وكل ساعة من القراءة التأملية مكرسة للإنصات على نحو ما أنصتت مريم. إن شيئاً ما يقال لنا، يقال للمتحدث كما يقال للمستمعين على السواء، وهو شئ قد نصبح مهتمين به بشكل لا متناه. وهذا هو معنى كل موعظة. إنها سوف توقظ الاهتمام اللامتناهي.

ما المقصود عندما يكون هناك اهتمام بشئ ما؟ إنه يعني أننا منخرطون فيه، وإن جانباً من نفوسنا فيه، وأننا نشارك فيه بقلوبنا. بل إنه يعني شيئاً أكبر من هذا. إنه يشير إلى الطريقة التي ننخرط بها ألا وهي على نحو (حافل بالقلق). إن حكمة لغتنا غالباً ما توحد الهم بالقلق. فحيثما نكون منخرطين فإننا نشعر بالقلق. هناك عدة أشياء تهمنا، والتي تستثير الحنو أو الرعب. لكنها ليست هي همنا الحقيقي، إنها لا تُحدِث هذا القلق الدافع المعذب الماثل عندما نهتم على نحو أصيل وجاد. وفي قصتنا نجد أن مَرَثَا مهتمة بشكل جاد. ودعونا نتذكر ما يعطينا اهتمامنا في مجرى يوم عادي متوسط، منذ لحظة الاستيقاظ إلى اللحظة الأخيرة قبل أن نستغرق في النوم بل حتى إلى ما يجاوز هذا عندما تظهر أشكال قلقنا في الأحلام.

إننا مهمومون فيما يتعلق بأعمالنا، وإن هذا هو أساس وجودنا. إننا قد نحب عملنا، وإننا قد نحققه كواجب أو كضرورة شاقة. لكن القلق يتملكنا عندما نشعر بمحدودويات قوتنا، نشعر بنقص الفاعلية، بنقص صراعنا مع الكسل، وخطر الفشل. إننا مهمومون بعلاقاتنا بالآخرين. إننا لا نستطيع أن نتصور العيش بدون أريحيتهم، بدون صداقتهم، بدون حبهم، بدون تشاركهم جسماً ونفساً. لكننا قلقون بل وغالباً ما نكون في ذروة اليأس عندما نفكر في عدم الاكتراث، في انفجار الغضب والغيرة، في العداوة الخفية وغالباً العداوة المريرة السامة التي نستشعرها في نفوسنا وكذلك في نفوس أولئك الذين نحبهم. وإن القلق إزاء فقدانهم، إزاء أن يكونوا قد تأذّوا، إزاء عدم استحقاقنا لهم، إنما يزحف في قلوبنا ويجعل حبنا دون استقرار. إننا مهمومون بأنفسنا. ونحن نشعر بالمسئولية بالنسبة لتطورنا تجاه الوصول إلى مرحلة النضج، تجاه قوة

الحياة، والحكمة في العقل والكمال في الروح. وفي الوقت نفسه إننا نبحث عن السعادة، إننا مهمومون بلذاتنا وأن "يكون لنا زمن جميل"، وهو اهتمام له مرتبة عالية جداً عندنا. لكن قلقنا يضربنا عندما نتطلع إلى نفوسنا في مرآة التمعّن الذاتي أو إصدار الأحكام على الآخرين. إننا نشعر بأننا اتخذنا القرار الخطأ، وأننا بدأنا على الطريق الخطأ، وأننا إنما نفشل أمام الناس وأمام أنفسنا. إننا نقارن أنفسنا بالآخرين، ونشعر بالدونية إزاءهم، وأننا مكتئبون ومُحبطون. إننا نعتقد أننا أضعنا سعادتنا إما باقتفائها بشغف شديد والخلط بين السعادة واللذة أو أننا لا نكون شجعاناً بما فيه الكفاية لالتقاط اللحظة الحقة لاتخاذ القرار الذي قد يحمل لنا السعادة.

ونحن لا نستطيع أن ننسى الاهتمام الطبيعي والكلي الأقصى بكل شئ يوجد، الاهتمام بالحفاظ على الحياة - الحفاظ على خبزنا اليومي. ولقد كانت هناك فترة في التاريخ الحديث فيها نجد جماعات واسعة في العالم الغربي تكاد أن تكون قد نسيت هذا الاهتمام. واليوم فإن الاهتمام البسيط بالطعام واللبس والمأوى مهمين تماماً في الجانب الأكبر من البشرية حتى أنه يكاد يقمع معظم الاهتمامات الإنسانية الأخرى واستوعب عقول كل طبقات الناس.

ولكن، قد يسأل أحدهم، أليست لدينا اهتمامات أسمى من اهتماماتنا فيما يتعلق بحياتنا اليومية؟ وألم يشهد يسوع (نفسه) على هذا؟ فعندما تأثر (هو) ببؤس الجماهير ألم يكرس الاهتمام الاجتماعي الذي استولى على كثير من الناس في عصرنا، وهو يحررهم من عديد من أشكال القلق لحياتهم اليومية؟ عندما تأثر يسوع بالشفقة للمرضى وداواهم ألم يكرّس (هو) لهذا الاهتمام الذي يتشارك فيه المداوون طبياً وروحياً؟ وعندما جمع حوله (هو) مجموعة صغيرة لكي يؤسس جماعة داخلها ألم يكرس (هو) بالتالي الاهتمام بالحياة المشتركة؟ وعندما يقول (هو) إنه (هو) قد تأتّى له أن يشهد بالحقيقة ألم يكرس (هو) الاهتمام بالحقيقة والعاطفة للمعرفة التي هي قوة دافعة على هذا النحو في زماننا؟ وعندما يقوم (هو) بتعليم الحشود وأتباعه (هو) ألا يكرس (هو) الاهتمام

بالتعليم والتربية؟ وعندما يضرب (هو) الأمثال وعندما يصور (هو) جمال الطبيعة ويبدع عبارات ذات كمال رائع ألا يكرس هو الاهتمام بالجمال والإعلاء من شأن العقل الذي يمنح الجمال، والسلام بعد قلق اهتماماتنا اليومية؟

ولكن هل هذه هي اهتماماتنا النبيلة، "الشئ الأوحد المتفرد" الذي نحتاج إليه والشئ الحق الذي اختارته مريم؟ أو أن هذه الاهتمامات ربما هي الأشكال الأعلى والتي تمثلها مَرَثَا؟ هل نحن لا نزال - مثل مَرَثَا - مُهَتمين بأشياء عديدة عندما نكون مهتمين بالأشياء العظيمة والنبيلة؟

وهل نحن حقاً نكون تجاوزنا القلق حقاً عندما نكون مهتمين اجتماعياً وعندما تتناقض أثقال البؤس والجور الاجتماعي مع وصفنا المميز وتحطّ على ضميرنا وتمنعنا من التنفس بحرية وسيادة بينما نحن مضطرون إلى أن نكوّم أنَّات مئات الناس في جميع أنحاء العالم؟ وهل تعرفون عذاب أولئك الذين يريدون أن يداووا ولكنهم يعرفون أنه فات الأوان للغاية؟ أولئك الذين يريدون أن يربوا وأن يواجهوا الغباء والخسّة والكراهية، أولئك الذين يضطرون أن يقودوا وهم يتمزقون بجهل الناس وطموحات خصومهم ومؤسساتهم السيئة والحظ التعس؟ إن أشكال القلق هذه أعظم من أشكال القلق المتعلقة بحياتنا اليومية. وألا تعرفون أي قلق هائل ذلك الذي يرتبط بكل بحث أمين، القلق بشأن التعرض للسقوط في الخطأ، وخاصة يتخذ المرء له دروباً جديدة للتفكير لم تطأها قدم؟ ألم تعيشوا أبداً الشعور الذي لا يكاد يطاق بالخواء عندما تستديرون من عمل عظيم للفن إلى المطالب والقبح ومتطلبات حياتكم اليومية التي تبعث على القلق؟ وحتى هذا ليس هو (الشئ الأوحد المتفرد) الذي نحتاج إليه على نحو ما دلّ عليه يسوع عندما تحدث عن أشكال جمال (المعبد) الذي تعرض للدمار. لقد تعلمت أوربا الحديثة أن ألفيات السنين من الإبداع الإنساني الذي تفاخرت به لم يكن هو "الشئ الأوحد المتفرد الذي نحتاج إليه" لأن صروح هذه الألفيات من السنين ملقاة الآن على الأرض وهي حطام.

ولماذا يرتبط العديد من الأشياء التي نهتم بها بالجَزع والقلق؟ إننا نعطيها تكريسنا، قوتنا، عاطفتنا، ويجب أن نفعل هذا، وإلا فلن نحقق أي شئ. لماذا - إذن - تجعلنا مقلقلين في أعمق أساسٍ لقلوبنا، ولماذا يستبعدها يسوع باعتبارها ليست احتياجات قصوى؟

وكما يبين يسوع في كلماته عن مريم، فإن الأمر يرجع إلى أنها يمكن أن تنتزع منا. كلها تفضي إلى نهاية، كل اهتماماتنا متناهية. وفي المدى القصير لحياتنا قد اختفى العديد منها من قبل وبزغت اهتمامات أخرى وهي أيضاً سوف تختفي. وكثير من الاهتمامات العظيمة في الماضي قد تلاشت والأكثر منها سوف ينتهي إن عاجلاً أو آجلاً. وإن القانون المحزن الخاص بالوجود المؤقت يحكم حتى أشد اهتماماتنا عاطفية. إن القلق من النهاية قابع في السعادة التي تعطينا إياها الاهتمامات. وكلا الأشياء التي نهتم بها ونحن مآلنا جميعاً أن ننتهي. وسوف تكون هناك لحظة - وربما لا تكون بعيدة - عندما لا نعود مهتمين بأي شئ من هذه الاهتمامات، عندما ينكشف تناهينا في تجربة تناهينا - في تجربة نهايتنا.

ولكننا نتمسك باهتماماتنا السطحية كما لو كانت هي اهتمامات قصوى. وهي تبقينا في قبضتها كما لو كنا نحاول أن نحرر أنفسنا منها. وكل اهتمام هو اهتمام طاغٍ وهو يريد قلبنا كله وعقلنا كله وقوتنا كلها. وكل اهتمام عن عملنا غالباً ما ينجح في أن يصبح إلهنا، على نحو ما يفعل اهتمام إنسان آخر أو عن اللذة. إن الاهتمام بالعلم قد نجح في أن يصبح إله حقبة بكاملها في التاريخ، والاهتمام بالمال قد أصبح حتى إلهاً أكثر أهمية، والاهتمام بالأمة هو الإله الأقصى أهمية من كل الآلهة. لكن هذه الاهتمامات متناهية، وهي تتصارع كل منها مع الاهتمامات الأخرى، وهل تثقل ضمائرنا لأننا لا نستطيع أن نعدل بينها جميعاً.

ونحن قد نحاول أن نستبعد كل الاهتمامات ونتمسك بعدم اهتمام ساخر. إننا نحدد أنه ما من شئ سوف يهمنا بعد ذلك، ربما فيما عدا ما يكون عرضياً ولكن من المؤكد أنه ليس بجدية. إننا نحاول أن نكون غير مهتمين بأنفسنا أو الآخرين، بعملنا وملذاتنا، بالضروريات وأمور الرفاهية، بشئوننا الاجتماعية والسياسية، بالمعرفة والجمال. بل إننا حتى لنشعر بأن عدم الاهتمام هذا له شئ فيه بطولي عن هذا. وهناك شئ

واحد حقيقي: إنه البديل الوحيد أن يكون لنا اهتمام أقصى: عدم اهتمام أو اهتمام أقصى - هذان هما البديلان الوحيدان. والإنسان الساخر مهتم، مهتم على نحو عاطفي، بشئ واحد هو عدم اهتمامه. لهذا لا يوجد إلا بديل واحد، والذي هو الاهتمام الأقصى.

إذن ما هو الشئ الواحد الذي نحتاج إليه؟ ما هو الشئ الحق الذي اختارته مريم؟ مثل قصتنا فإنني ترددت في أن أدلي بجواب، وذلك أن في الغالب أن أي جواب سيكون سوء فهم. ولو كان الجواب هو (الدين) فإنه سيُساء فهم هذا على أنه يعني مجموعة من العقائد وأوجه النشاط. ولكن - كما تظهر القصص الأخرى في (العهد الجديد) فإن مَرَثَا كانت على الأقل متدينة تدين مريم. يمكن للدين أن يكون اهتماماً إنسانياً على نفس مستوى الاهتمامات الأخرى، وهو يخلق القلق نفسه مثل الأمور الأخرى. وإن كل صفحة في التاريخ وعلم نفس الدين تظهر هذا. بل إنه حتى يوجد ناس بصفة خاصة مفروض فيهم أن يغرسوا هذا الاهتمام الإنساني الخاص. ويُطلق عليهم اسم تجديفي للغاية. المتدين - وهي كلمة تكشف المزيد من تآكل الدين في عصرنا على نحو أكبر من أي شئ آخر. فلو كان الدين هو الاهتمام الخاص لشعب بعينه وليس الاهتمام الأقصى لكل مخلوق فإنه يكون لغواً أو تجديفاً. ومن ثم فنحن نسأل من جديد: ما هو الشئ الوحيد الذي نحن محتاجون إليه؟ ومرة أخرى تصعب الإجابة. فلو أجبنا (الله) فسوف يكون هذا أيضاً إساءة فهم. فحتى (الله) يمكن أن يكون اهتماماً متناهياً، موضوعاً ضمن موضوعات أخرى، وبعض الناس تؤمن بوجوده والبعض الآخر لا يؤمنون. مثل هذا الإله بالطبع لا يمكن أن يكون اهتمامنا الأقصى. أو قد نجعله (هو) شخصاً مثل الأشخاص الآخرين حيث يكون مفيداً أن نكون معهم علاقة. مثل هذا الشخص قد يكون معيناً لاهتماماتنا المتناهية، لكنه (هو) لا يمكن على وجه التأكيد أن يكون اهتمامنا الأقصى.

إن الشئ الوحيد الذي نحن محتاجون إليه - وهو الجواب الأول وفي الوقت نفسه الجواب الأخير الذي أدلي به - هو أن نكون مهتمين بشكل أقصى، بدون شروط، على نحو لا متناه. هذا هو ما كانت عليه مريم.

وهذا ما شعرت به مَرَثا وما جعلها غاضبة، وهذا هو ما امتدحه يسوع في مريم. ووراء هذا ليس هناك الكثير قد قيل أو يمكن أن يقال عن مريم وهو أقل مما قد قيل عن مَرَثا. (ولكن مريم كانت مهتمة اهتماماً لا متناهياً). هذا هو الشئ الوحيد الذي نحن محتاجون إليه.

فإذا حدث في قوة وعاطفة مثل هذا الاهتمام الأقصى، أن نظرنا في اهتماماتنا الجزئية، في مجال حياة مَرَثا، فإن كل شئ يبدو هو نفسه ومع هذا فإن كل شئ قد تغير. إننا لا نزال مهتمين بالنسبة لكل هذه الأشياء ولكن على نحو مختلف - لقد ولّى القلق! إنه لا يزال موجوداً ويحاول أن يعود. لكن قوته قد تحطمت، إنه لا يعود يحطمنا بأي حال. ومن يستولي عليه شئ واحد يكون في حاجة إليه لديه أشياء عديدة تحت قدميه. إنها نهمه ولكن ليس على نحو أقصى، وعندما يفقدها لا يفقد شيئاً واحداً هو يحتاجه، وهذا لا يمكن انتزاعه منه.

(٢١)

الوقت الحق

[1] لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ وَقْتٌ. [2] لِلْوِلاَدَةِ وَقْتٌ وَلِلْمَوْتِ وَقْتٌ. لِلْغَرْسِ وَقْتٌ وَلِقَلْعِ الْمَغْرُوسِ وَقْتٌ. [3] لِلْقَتْلِ وَقْتٌ وَلِلشِّفَاءِ وَقْتٌ. لِلْهَدْمِ وَقْتٌ وَلِلْبِنَاءِ وَقْتٌ. [4] لِلْبُكَاءِ وَقْتٌ وَلِلضَّحْكِ وَقْتٌ. لِلنَّوْحِ وَقْتٌ وَلِلرَّقْصِ وَقْتٌ. [5] لِتَفْرِيقِ الْحِجَارَةِ وَقْتٌ وَلِجَمْعِ الْحِجَارَةِ وَقْتٌ. لِلْمُعَانَقَةِ وَقْتٌ وَلِلاِنْفِصَالِ عَنِ الْمُعَانَقَةِ وَقْتٌ. [6] لِلْكَسْبِ وَقْتٌ وَلِلْخَسَارَةِ وَقْتٌ. لِلصِّيَانَةِ وَقْتٌ وَلِلطَّرْحِ وَقْتٌ. [7] لِلتَّمْزِيقِ وَقْتٌ وَلِلتَّخْيِيطِ وَقْتٌ. لِلسُّكُوتِ وَقْتٌ وَلِلتَّكَلُّمِ وَقْتٌ. [8] لِلْحُبِّ وَقْتٌ وَلِلْبُغْضَةِ وَقْتٌ. لِلْحَرْبِ وَقْتٌ وَلِلصُّلْحِ وَقْتٌ. (الجامعة ٣: ١ - ٨)

لقد استمعتم لكلمات إنسان منذ حوالي ٢٠٠ عام قبل مولد يسوع، إنسان تغذى في التقوى اليهودية وتربى في الحكمة اليونانية، لقد كان طفل عصره - عصر الكوارث واليأس. ولقد أعرب عن هذا اليأس بكلمات تشاؤم فاقت معظم الكتابات المتشائمة في الأدب العالمي. كل شئ باطل، وهو يكرر هذا عدة مرات. إنه باطل، حتى لو كنت الملك سليمان الذي لم يكتف بالسيطرة على الوسائل لتحقيق أي إشباع ممكن إنساني بل استطاع أيضاً أن يستخدمها بحكمة. ولكن حتى مثل هذا الإنسان يجب أن يقول: الكل باطل! إننا لا نعرف من كاتب هذا السِّفر الذي يُسمَّى عادة (الواعظ) رغم أنه أكثر من مجرد مدرس للحكمة، مجرد فيلسوف علمي. ربما نتعجب كيف أن الانشغالات السوداء لمصير إنسان يمكن أن تصبح سفراً توراتياً[41]. لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً، والتغلب على كثير من الاحتجاج قبل أن يجري تقبله. ولكن أخيراً نجد أن المعبد اليهودي والكنيسة تقبلاه، والآن فإن هذا السفر هو في (الكتاب المقدس) بجانب سفر إشعياء وإنجيل متى ورسائل بولس وإنجيل يوحنا. ٢ **«بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ» قَالَ الْجَامِعَةُ. «بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ**

(٤١) المؤلف يقول سفراً (إنجيلياً) ولكننا غيرنا لأن سفر الجامعة هو في العهد القديم لا العهد الجديد (المترجم).

الكل بَاطِلٌ». [٤٢] وأصبح لهذه العبارة سلطان ديني في الكتاب المقدس. وأعتقد أن هذا السلطان هو شئ مُستَحَق، فهو ليس سلطاناً جاء نتيجة خطأ، بل هو سلطان الحقيقة. وإن وصفه للوضع الإنساني أصدق من أي شعر يمجد الإنسان ومصيره. وإن أمانته إنما تفتح عيوننا على تلك الأشياء التي أغضينا الطرف عنها أو غطيناها على أيدي المتفائلين من شتى الأنواع. وهكذا إذا التقيتم بأناس يهاجمون المسيحية لأن لديهم العديد جداً من الأوهام قل لهم إن هجماتهم ستكون أقوى إذا ربطوا أنفسهم بسفر هذا (الواعظ) أي سفر الجامعة. والحقيقة الخالصة من أن هذا السفر هو جزء من الكتاب المقدس يظهر بوضوح أن الكتاب هو أشد الأسفار واقعية. وهو لا يمكن أن يكون إلا على هذا النحو. فعلى هذه الخلفية وحدها يكون لرسالة يسوع باعتباره (المسيح) معنى. وإذا نحن تقبلنا فحسب وجهة نظر أمينة عن الوضع الإنساني، عن حقيقة الإنسان القديمة، فهل نستطيع أن نفهم الرسالة من أنه في (المسيح) قد ظهر واقع جديد. وإن (مَنْ) لم يقل عن حياته (هو) إطلاقاً "باطل الأباطيل، الكل باطل" لا يستطيع بأمانة أن يقول مع بولس "في كل هذه الأمور إننا أكثر من منتصرين من خلاله (هو) ذلك الذي أحبنا"

"**لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ وَقْتٌ.** هكذا يقول (سِفر الجامعة). وفي أربعة عشر تقابلاً يضم الوجود الإنساني بكليته وهو يظهر أن لكل شئ وقت. فماذا يعني هذا؟

عندما يقول (سفر الجامعة) إن لكل شئ وقته فإنه لا ينسى عبارته المتكررة دوماً [١٧] "**وَوَجَّهْتُ قَلْبِي لِمَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ وَلِمَعْرِفَةِ الْحَمَاقَةِ وَالْجَهْلِ. فَعَرَفْتُ أَنَّ هَذَا أَيْضاً قَبْضُ الرِّيحِ.**" [٤٣] إن حقيقة أن كل شئ له وقته المحدد إنما يؤكد وحسب رؤيته المأساوية. إن للأشياء وللأعمال وقتها. ثم تنقضي ويصبح للأشياء والأعمال الأخرى وقتها (هي).

(٤٢) اجتزأ المؤلف الآية وقد فضلنا أن نوردها بنصها كما جاءت في الأصحاح الأول من سفر الجامعة (المترجم).

(٤٣) اقتطع المؤلف النص وفضلنا إدراج الآية (١٧) برمتها من الأصحاح الأول من سفر الجامعة (المترجم).

ولكن لا جديد بأي من هذه الدائرة التي تسير فيها كل الحياة. إن كل شئ موقوت بقانون أبدي هو فوق الزمن. ونحن لا نستطيع أن ننفذ في معنى هذا التوقيت. بالنسبة لنا (نحن) إنه سر وما نراه (نحن) هو الباطل والإحباط. وتوقيت (الله) خفي عنا، وكدحنا وتوقيتنا ليست لهما أي فائدة قصوى. وإن أي محاولة إنسانية لتغيير إيقاع الميلاد والموت، إيقاع الحرب والسلام، إيقاع الحب والكراهية وكل المتقابلات الأخرى في إيقاع الحياة هي باطل.

هذا هو المعنى الأول لكنه ليس المعنى للكلّي للعبارة من أن لكل شئ وقتاً محدداً. فإذا كان (الواعظ) صاحب سفر الجامعة يقول إن هناك وقتاً للزرع ووقتاً للحصاد، وقتاً للقتل ووقتاً للمداواة، وقتاً للهدم ووقتاً للبناء، وقتاً للنحيب ووقتاً للرقص، وقتاً للتكلم ووقتاً للصمت، فإنه يطلب منا أن نراعي الزمن الحق، الوقت الذي نعمل فيه شيئاً واحداً وليس شيئاً آخر. وبعد أن أكد أن كل شئ موقوت بمصير محتوم فإنه يطلب منا أن نتّبع هذا التوقيت القادم من الأعلى وأن نرتب توقيتنا بمقتضاه. وصاحب السِفر كمعلم للحكمة الذي يعطينا عدة قواعد حكيمة لعملنا يطلب منا التوقيت الحق المناسب. إنه يعرف أن كل توقيتنا متوقف على التوقيت من أعلى، من الحاكم الخفي للزمن، ولكن هذا لا يستبعد عملنا في اللحظة الحقة المناسبة وليس في اللحظة الخاطئة. والعالم القديم برمته مساق بالإيمان بأن لكل شئ نعمله توجد ساعة مُوقَّتَة ملائمة: فإذا أردت أن تبني بيتاً أو تتزوج، وإذا أردت أن تسافر أو تشن حرباً - بالنسبة لأي مشروع هام - يجب أن تطلب اللحظة الحقة الملائمة. يجب أن تسأل إنساناً يعرف - الكاهن أو المُنَجِّم، العراف أو النبي. وعلى أساس معجزاتهم عن الفعل الحسن يمكنك أن تتصرف أو لا يمكنك أن تتصرف. وكان هذا اعتقاداً عبر القرون وآلاف السنين. وكان هذا أقوى القوى في التاريخ الإنساني، من جيل إلى جيل. وإن الرجال العظام في الماضي انتظروا المعجزة التي تعلن الساعة المحددة. ويسوع (نفسه) يقول إن ساعته لم تأت بعد ولقد توجه إلى القدس عندما شعر بأن ساعته (هو) (قد) أتت.

والإنسان الحديث عادة لا يطلب معجزات. لكن الإنسان يعرف الحاجة للتوقيت شأنه في هذا شأن السابقين عليه. وعندما كنت في سنواتي الأولى في هذا القطر - الولايات المتحدة الأمريكية [٤٤] - وكان عليّ أن أناقش مشروعاً محدداً مع رجل أعمال أمريكي ذي نفوذ قال لي: "لا تنْس أن الخطوة الأولى للعمل الناجح هي التوقيت الحق الملائم" وعديد من المرات عندما كنت أقرأ عن الأعمال السياسية أو التجارية كان يحدث لي تذكير بهذه الكلمات. وفي عديد من المحادثات عن أوجه النشاط والخطط كانت تبرز مشكلة التوقيت. وهذا من أبرز النماذج الجلية في ثقافتنا، في حضارتنا الصناعية. فكيف يمكن أن نقرن هذا بكلمات صاحب سفر الجامعة؟

عندما تحدث إلى رجل الأعمال عن التوقيت فكر فيما قد فعله (هو) وما سوف يفعله (هو). لقد فضح زهو رجل يعرف الساعة الحقة الملائمة لأعماله، والذي كان ناجحاً في توقيته، والذي شعر على أنه سيد مصيره، على أنه خالق الأشياء الجديدة، على أنه قاهر المواقف والأوضاع. وهذا اليقين ليس هو حالة صاحب سفر الجامعة. فحتى لو كان الواعظ صاحب السفر يشير إلى الحاجة إلى التوقيت الحق لم يكف عن قوله العظيم "الكل باطل". عليك أن تفعل هذا، يجب أن تلتقط اللحظة الحقة الملائمة، ولكن هذا لا يهم من الناحية القصوى. فالنهاية هي هي عينها بالنسبة للحكيم والأحمق، بالنسبة لذلك لمن يتعذب ومن يستمتع بنفسه، فالنهاية هي حتى سواء بالنسبة للإنسان والحيوانات.

والواعظ صاحب سفر الجامعة هو أولاً وقبل كل شئ واع أنه (هو) موقوت وهو يشير إلى توقيتنا على أنه مسألة ثانوية. ورجل الأعمال الحديث هو أولاً وقبل كل شئ واع بأنه (هو) عليه أن يوقّت الأمور، ولا يدرك إلا بغموض أنه هو نفسه (موقوت). وبطبيعة الحال إنه على وعي أيضاً بأنه لم يقدم الوقت الحق، وأنه معتمد عليه، وأنه قد يفقده وسط حساباته وأعماله. إنه يعرف أن هناك حداً لتوقيته، وأن

(٤٤) غادر المؤلف بول تيليش بلده ألمانيا بسبب الحكم النازي وهاجر عام ١٩٣٣ إلى الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

هناك قوى اقتصادية أكبر من قواه هو ، وأنه هو أيضاً خاضع لمصير نهائي يُنهي كل خططه. إنه واع بهذا، لكنه لا يعبأ بهذا عندما يخطط ويعمل. ومختلف عن هذا الواعظ صاحب سفر الجامعة. إنه يبدأ بتعديد الأشياء التي تحتاج إلى توقيت بالحياة والموت. وهي بمنأى عنِ التوقيت البشري إنها معالم لا يمكن تجاهلها. إننا لا نستطيع أن نوقتها وإن كل توقيتنا محدود بها هي. وهذا هو السبب في بداية حقبتنا الحديثة فإن الموت والخطيئة والجحيم قد مُحِيَت من الوعي العام. بينما في العصور الوسطى كانت كل غرفة، كل شارع، والأكثر أهمية، كل قلب وكل عقل ممتلئ برموز النهاية أو الخاتمة، رموز الموت، وأصبح هذا اليوم ذوقاً نابياً حتى ولو مجرد ذكر الموت. وإن الإنسان الحديث يشعر بأن الوعي بالنهاية يزعج ويوهن قوته بالنسبة للتوقيت. وهو لديه - بدل الرموز المتوعدة بالموت - الساعة في كل غرفة، وفي كل شارع، والأكثر أهمية في عقله وفي أعصابه. هنا لا شئ غامض عن الساعة. إنها تحدد توقيتنا اليومي. وبدونها ما كان يمكن أن نخطط للساعة التالية، وما كنا نستطيع أن نوقّت أياً من أوجه نشاطاتنا. غير أن الساعة تذكرنا أيضاً بحقيقة أننا (موقوتون). إنها تدل على اندفاع وقتنا تجاهه. إن صوت الساعة قد ذكّر العديد من الناس بحقيقة أنهم موقوتون. وفي شارع ألماني قديم حيث يوجد حارس ليلي هناك أغنية تعلن كل ساعة الوقت مع منبه خاص. وفي منتصف الليل تقول: "الثانية عشرة - هذا هو هدف الوقت، فاعطنا يا إلهنا الأبدية". وهذان الموقفان تجاه الساعة يدلان على طريقتين للتوقيت - الأولى على أنها موقوتة، والثانية توقيت للساعة التالية، لليوم وللغد. فماذا تقول الساعة لكم؟ هل تشير إلى ساعة الاستيقاظ والعمل والأكل والتحدث والتوجه للنوم؟ هل تشير إلى موعد تالٍ للمشروع التالي؟ أو أنها تظهر أن يوماً آخر، أن أسبوعاً آخر قد انقضى، وأننا أصبحنا أكبر في السن وأننا محتاجون لزمن أفضل لاستخدام السنوات الأخيرة لإنجاز خططنا، للزرع والبناء والتشطيب. قبل أن يصبح الوقت متأخراً جداً ويكون الأوان قد فات أو أن الساعة تجعلنا نتوقع اللحظة التي لا يتحدث فيها صوتها بعد ذلك لنا؟ هل لدينا، نحن رجال العصر الصناعي، بخث

الرجال الذين يوقتون كل ساعة من يوم إلى يوم، الشجاعة والتخيل اللذين كانا عند الواعظ صاحب سفر الجامعة الذي ينظر إلى الوراء على كل زمانه (هو) وكل توقيته (هو) ويسمى هذا الباطل؟ وإذا كان الأمر هكذا فماذا عن توقيتنا؟ ألا يفقد أياً من معناه؟ ألا يجب أن نقول مع الواعظ صاحب سفر الجامعة أنه خير للإنسان أن يتمتع بالحياة كما مُنِحَت له من ساعة إلى ساعة، ولكن إن من الأفضل ألا يكون قد وُلد أصلاً؟

وهناك جواب آخر على سؤال الوجود الإنساني، على سؤال التوقيت وأننا معرَضون للتوقيت. وكل هذا يتلخص في كلمات يسوع: " إن الوقت قد اكتمل وإن مملكة الله في المتناول". في هذه الكلمات توقيت الله ينفذ في توقيتنا البشري. وأحياناً يظهر جديد يرد على سؤال الواعظ صاحب سفر الجامعة وكذلك على سؤال رجل الأعمال. إننا نسأل مع كل الأجيال من الناس المفكرين: ما معنى تدفّق الزمن وانقضاء كل شئ منه؟ ما معنى كدحنا وتخطيطنا عندما تكون نهايتنا جميعاً وجميع أعمالنا سواء؟ الباطل؟ وهذه هي الإجابة التي نتلقاها: داخل زماننا هذا هناك شئ يحدث ليس من زماننا بل انطلاقاً من الأبدية وهذا يحدد زماننا (نحن)! والقوة نفسها التي تحددنا في الزمن تعطي دلالة أبدية لتوقيتنا. وعندما يقول يسوع إن الساعة الحقة قد حانت وأن مملكة الله في المتناول فإنه يعلن الانتصار على قانون البطلان. إن (هذه) الساعة ليست خاضعة لدائرة الحياة والموت وجميع الدوائر الأخرى الخاصة بالباطل. وعندما يظهر الله (نفسه) في لحظة من الزمن، عندما يخضع (هو نفسُه) (نفسَه) لتدفق الزمن، يجري قهر تدفق الزمن. وإذا كان هذا يحدث في لحظة (واحدة) من الزمن، إذن فإن (كل) لحظات الزمن تتلقى دلالة أخرى. وعندما يدور عقرب الساعة، فإنه لا توجد لحظة واحدة باطلة تحل محلها لحظة أخرى باطلة، بل كل لحظة تقول لنا: إن (الأبدي) في متناول اليد في (هذه) اللحظة. إن اللحظة تنقضي، والأبدي يبقى. ومهما يحدث في هذه اللحظة، في هذه الساعة، في هذا اليوم، وفي هذه الحياة - الزمنية القصيرة أو الطويلة له دلالة لا متناهية. إن توقيتنا من لحظة إلى أخرى، إن تخطيطنا اليوم، إن كدح

حياتنا الزمنية لا يضيع. ومعناه الأعمق يكمن ليس قدام المكان حيث يبلع الباطل، بل يكمن فوق المكان حيث الأبدية تؤكده. وهذه هي جدية الزمن والتوقيت. من خلال توقيتنا الله يؤقت الآتي من مملكته (هو)، من خلال توقيتنا (هو) يرفع زمن الباطل إلى زمن التحقق. والإنسان الفعال الذي يوقت بالعنف والحدث ما عليه أن يفعله في زمنه ولأجل زمنه ولأجل حضارتنا الفعالة الكلية لا يمكن أن يعطينا جواباً. والواعظ صاحب سفر الجامعة الذي كان هو نفسه ذات مرة من أشد الفعالين الناجحين يعرف أن هذا ليس هو الجواب، إنه يعرف باطل توقيتنا. ولنكن أمناء إن روح (الواعظ) قوية اليوم في عقولنا. وإن حالته تشغل فلسفتنا وشعرنا. إن باطل الوجود الإنساني إنما يصفه بقوة أولئك الذين يسمون أنفسهم فلاسفة أو شعراء الوجود. إنهم جميعاً أطفال (الواعظ)، هذا الوجودي العظيم في زمانه. ولكنه لا هم ولا (الواعظ) يعرفون جواباً. إنهم يعرفون أكثر مما يعرف الناس الذين ليس لديهم إلا مجرد العمل والأداء. إنهم يعرفون باطل الأداء والتوقيت. إنهم يعرفون أننا (نكون) مُوقَّتين. لكنهم (لا) يعرفون الجواب بالمثل. من المؤكد أننا يجب أن نؤدي، لا نملك أن نمنع هذا. وعلينا أن نوقّت حياتنا يوماً بعد يوم. دعونا نعمل هذا بشكل واضح وناجح كما عند (الواعظ) عندما كان لا يزال يتبع مثال الملك سليمان. ولكن دعونا نتتبعه أيضاً عندما رأى (من خلال) كل هذا وتبين باطله.

إذن، وإذن وحدها، هل نحن مستعدون لرسالة الظهور الأبدي في الزمن ورفع الزمن إلى الأبدية. إذن فإننا نرى في حركة الساعة ليس (وحسب) انقضاء لحظة تلو الأخرى، بل أيضاً الأبدي وهو في متناول اليد، وهو يهدد، وهو يطلب، وهو يعد. وحينئذ سنكون قادرين على أن نقول: (بالرغم من!). بالرغم من أن واقعة أن (الواعظ) وكل أتباعه المتشائمين اليوم وفي كل مكان وفي كل العصور هم على حق، فإنني أقول نعم للزمن وللكدح وللعمل. وأنا أعرف الدلالة اللامتناهية لكل لحظة. ولكن - مرة أخرى - ونحن نقول هكذا لا يجب أن نرتد إلى وجهة نظر الفعال النشط، ولا حتى إلى المسيحي الفعال النشط - وهناك الكثير منهم، رجالاً ونساء في (العالم المسيحي). إن رسالة تحقق

الزمن ليست ضوءاً أخضر من أجل نزعة فعالة نشطة يُفترض فيها أنها مسيحية. بل إنها تجعلنا نقول مع بولس: "بالرغم من أن طبيعتنا الخارجية تَلَفاً، فإن طبيعتنا الباطنية تتجدد كل يوم - لأننا ننظر لا إلى الأشياء التي تُرى بل إلى الأشياء التي لا تُرى. لأن الأشياء التي تُرى زائلة، لكن الأشياء التي لا تُرى أبدية!" وفي هذه الكلمات تتوحد رسالة (الواعظ) ورسالة يسوع. الكل باطل ولكن من خلال هذا الباطل تشع الأبدية فينا، وتقترب منا، وتدفعنا نحوها. وعندما تستدعي الأبدية الزمن حينئذ تختفي النزعة الفعالة النشطة. عندما تستدعي الأبدية الزمن حينئذ يختفي التشاؤم. وعندما توقتنا الأبدية حينئذ يصبح الزمن وعاء للأبدية وحينئذ نصبح أوعية لما هو أبدي.

(٢٢)

الحب أقوى من الموت

١٤ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّنَا قَدِ انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ لأَنَّنَا نُحِبُّ الإِخْوَةَ. مَنْ لاَ يُحِبَّ أَخَاهُ يَبْقَ فِي الْمَوْتِ.
(رسالة يوحنا الرسول الأولى ٣: ١٤)

في عصرنا كما في كل عصر نحن في حاجة إلى أن نرى شيئاً يكون أقوى من الموت. والموت قد أصبح قوياً في عصرنا، في البشر الأفراد، في الأسر، في الأمم وفي البشرية ككل. لقد أصبح الموت قوياً - أي يمكننا أن نقول إن (النهاية)، المتناهي، ومحدوديات وتآكل وجودنا قد أصبحت مرئية. ولحوالي قرن كان هذا مخفياً في الحضارة الغربية. لقد أصبحنا سادة في دنيانا الأرضية. وإن سيطرتنا على الطبيعة وتخطيطنا الاجتماعي قد وسّعَا حدود وجودنا، وإن تأكيد الحياة قد أغرقنا في سلبيته والتي لم تعد تجرؤ على أن تجعل نفسها مسموعة، والتي تهرب إلى القلق الخفي، قلق قلوبنا، وازدادت ضَعْفاً وَضعْفاً. ونحن ننسى أننا متناهون، ونحن ننسى هوة العدم التي تحيط بنا. لقد جمّعنا في أجراننا ثمار آلاف السنين من الكدح. وكل أجيال الناس كذّبت حتى أننا، جيل الإنجاز، يمكن أن ندوس الموت تحت أقدامنا. وهو ليس الموت بمعنى النهاية الطبيعية للحياة هو الذي فكرنا أن ندمره، بل الموت كقوة في الحياة وفوق الحياة، باعتباره (رب) النفس وسيدها. ولقد أبقينا صورة الموت بعيدة عن أطفالنا، وعندما يحدث هنا وهناك، في جوارنا وفي العالم أن الاضطرابات المميتة و(النهاية) أصبحت مشاهدة، فإن أمننا لم يضطرب. فهذه الأحداث بالنسبة لنا كانت مجرد أمور عرضية ولا يمكن تجنبها، ولكنها لم تكن كافية لتمزيق الغطاء الذي أحكمناه على هوة وجودنا.

وفجأة تمزق الغطاء. وظهرت صورة الموت بدون حجاب في آلاف الأشكال. وكما في العصور الوسطى المتأخرة فإن شبح الموت ظهر في اللوحات والشعر، و(رقصة الموت) مع كل كائن حي جرى تصويرها والتغني بها، حتى إن جيلنا - جيل الحروب العالمية والثورات والهجرات الجماعية - أعاد اكتشاف حقيقة الموت. لقد رأينا الملايين

وهم يموتون في الحرب، ومئات الالاف في الثورات وعشرات الالاف في الاضطهادات وعمليات التطهير المنظمة للأقليات. وهناك عدد وافر وعديدون كأمم بالكامل لا تزال تتجوّل على وجه الأرض أو تفنى عندما تضع الجدران المصطنعة نهاية لتجوالاتهم. وكل أولئك الذين يسمون لاجئين أو مهاجرين ينتمون لهذا التجوال، وفيهم يتجسد جانب من تلك الأحداث الهائلة حيث الموت قد استعاد قبضته على اللجام الذي اعتقدنا أنه تركه إلى الأبد. ومثل هؤلاء الناس يحملون في نفوسهم، وفي الغالب في أبدانهم، آثار الموت، ولن يفقدوها بالكامل إطلاقاً. وأنتم يامن لم تشاركوا أنفسكم على الإطلاق في هذه الهجرة الجماعية الكبيرة يجب أن تتلقوهم هؤلاء الآخرين كرموز على الموت الذي هو عنصر مركب للحياة. تلقوهم كأناس - بمصيرهم - سوف يذكروننا بمثول (النهاية) في كل لحظة من لحظات الحياة والتاريخ. استقبلوهم كرموز لانتهاء ومصير مؤقت لكل اهتمام إنساني، لكل حياة إنسانية، ولكل شئ مخلوق.

لقد أصبحنا جيل (النهاية) وأولئك الذين قد أصبحوا منا لاجئين ومنفيين يجب عدم نسيان هذا عندما نجد بداية جديدة هنا أو في أرض أخرى. إن (النهاية) ليست شيئاً خارجياً. إنها ليست استنفاداً بفقد ذلك الذي لا يمكن استعادته بالمرة: بيوتنا ونحن أطفال، الناس الذين شببنا عن الطوق معهم، البلد، الأشياء، اللغة التي شكلتنا، البضائع الروحية والمادية معاً التي ورثناها أو حصلناها، والأصدقاء الذين فارقونا بالموت الفجائي. إن (النهاية) هي أكبر من كل هذا، إنها فينا، لقد أصبحت وجودنا. إننا جيل (النهاية) ويجب أن نعرف أننا على هذا النحو. ربما يوجد البعض الذين يعتقدون أن ما قد حدث لهم وللعالم كله يجب نسيانه الآن. أليس الأكبر توقيراً وصدقاً وقوة أن نقول (نعم) لذلك الذي هو مصيرنا، نقول (نعم) لذلك الذي يرفض أن يغطي أنات (النهاية) في حياتنا وفي نفوسنا وترك صوت (الموت) يُسمَع؟ وسط كل الإمكانيات الجديدة المقدمة إلينا ألا يجب أن نقر لأنفسنا أن نكون ما صنعه المصير لنا؟ ألا يجب أن نعترف بأننا

رموز (للنهاية)؟ وهذه (النهاية) هي من عصر كان عظيماً وأكذوبة معاً. إنها (النهاية) لكل تناه يصبح دائماً أكذوبة عندما ننسى أنّه تناه ونسعى إلى حجب صورة الموت.

ولكن من ذا الذي يتحمل أن ينظر إلى هذه الصورة؟ فقط إنه ذلك الذي يستطيع أن ينظر إلى صورة أخرى وراءها ومتجاوزاً إياها - صورة (الحب). ذلك أن الحب أقوى من الموت. كل موت يعني الفراق، الانفصال، العزلة، المعارضة، وليس المشاركة. ولهذا فإنه أيضاً مع موت الأمم، ونهاية الأجيال، وضمور النفوس. إن أرواحنا تصبح فقيرة وهي تتحلل طالما أننا نريد أن نكون وحدنا، طالما أننا ننوح على سوء حظوظنا، إننا نرى يأسنا ونستمتع بمرارتنا ومع هذا نشيح ببرود عن الحاجة المادية والروحية للآخرين. إن الحب يقهر الانفصال ويخلق المشاركة حيث يوجد أكثر من ذلك الذي يمكن للأفراد المعينين أن يحملوه له. إن الحب هو اللاتناهي الذي أعطي للمتناهي. لهذا فإننا نحب في الآخرين، وذلك أننا لا نحب فحسب الآخرين، بل إننا نحب (الحب) الذي هو فيهم والذي هو أكثر منهم أو من حبهم. وفي المساعدة المتبادلة فإن ما هو أكثر أهمية ليس تخفيف الحاجة بل تحقق الحب. وبطبيعة الحال لا يوجد حب لا يريد أن يجعل احتياج الآخر هو احتياجه. ولكن لا يوجد أيضاً عوْنٌ حقاً لا ينبع من الحب ويخلق الحب. وإن أولئك الذين يقاتلون ضد الموت والتحلل من خلال كل أنواع هيئات الإغاثة يعرفون هذا. وغالباً ما يكون ممكناً العون الخارجي البسيط جداً. وامتنان أولئك الذين يتلقون العون هو دائماً امتنان للحب وبعد ذلك فحسب هو امتنان للعون. إن الحب - لا العون - هو الأقوى من الموت. ولكن ما من حب لا يصبح عوناً. وحيث يوجد العون بدون الحب تنمو المعاناة الجديدة من العون.

إنه الحب، الإنساني والإلهي، هو الذي يقهر الموت في الأمم والأجيال وفي كل رعب عصرنا. والعون يكاد يكون مستحيلاً في وجه القوى الشيطانية الوحشية التي نعيشها. والموت يعطي قوة فوق كل شيئ متناه وخاصة في عصرنا من التاريخ. ولكن الموت لا يُعطي

قوة فوق الحب. إن الحب هو الأقوى. إنه يخلق شيئاً جديداً من الدمار الذي يمونه الموت، إنه يتحمل كل شئ ويقهر كل شئ. إنه يعمل عمله حيث تكون قوة الموت هي الأقوى، في الحرب، وفي الاضطهاد، وفي التشرد، وفي الجوع، وفي الموت المادي ذاته. إنه مهيمن وهو هنا وهناك، في أصغر الطرق الخفية وأعظمها وأكثرها وضوحاً، إنه ينقذ الحياة من الموت. إنه ينقذ كلامنا، لأن الحب أقوى من الموت.

(٢٣)

الخلاص الشامل

[45]وَمِنَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. [46]وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً: «إِيلِي إِيلِي لَمَا شَبَقْتَنِي» (أَيْ: إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟) (متى ٢٧: ٤٥- ٤٦)

[50]فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضاً بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. [51]وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ [52]وَالْقُبُورُ تَفَتَّحَتْ وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ [53]وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ. [54]وَأَمَّا قَائِدُ الْمِئَةِ وَالَّذِينَ مَعَهُ يَحْرُسُونَ يَسُوعَ فَلَمَّا رَأَوُا الزَّلْزَلَةَ وَمَا كَانَ خَافُوا جِدّاً وَقَالُوا: «حَقّاً كَانَ هَذَا ابْنَ اللَّهِ».
(متى ٢٧: ٥٠- ٥٤)

في قصص الصلب فإن ألم المسيح المبرح وموته مرتبطة بمجموعة من الأحداث في الطبيعة: الظلام الذي غطى الأرض، ستارة المعبد التي تمزقت نصفين، الأرض تزلزلت وأجساد القديسين بُعثت من قبورها. إن الطبيعة وهي ترتعد تشارك في الحادثة الحاسمة في التاريخ. إن الشمس تحتجب، والمعبد أبدى حركة نواح وأنين، وتزعزت أسس الأرض، وانفتحت القبور. والطبيعة زأرت لأن شيئاً يحدث يهم الكون.

ومنذ عهد أصحاب الأناجيل حيث قصة الجلجثا أو موضع صلب المسيح قد رُويت على أنها حدث كبير ونقطة تحول في دراما العالم خاصة بالخلاص، الدور الذي لعبته الطبيعة في هذه الدراما قد رُوي أيضاً. والفنانون المصورون لحادث الصلب قد استخدموا كل قوتهم

الفنية للتعبير عن الظلام الذي خيم على الأرض بألوان تكاد تكون غير طبيعية. وإنني أتذكر انطباعي المبكر عن يوم الجمعة الحزينة[٤٥] - الشعور بسر المعاناة الإلهية، وأولاً وقبل كل شئ من خلال حنو الطبيعة. وكذلك قائد المائة الروماني وهو أول وثني يشهد حادث الصلب. إنه وهو ممتلئ بالرهبة، ممتلئ بالخشية الخارقة للطبيعة، قد فهم بطريقة ساذجة - عميقة أن شيئاً ما قد حدث أكبر من موت إنسان مقدس وبرئ.

ونحن لا ينبغي لنا أن نسأل ما إذا كانت السحب أو العاصفة الترابية أظلمت الشمس في يوم محدد من سنة محددة، ولا ينبغي أن نسأل ما إذا كان زلزال قد حدث في فلسطين في تلك الساعة، ولا ينبغي أن نسأل ما إذا كان الحجاب أمام قدس الأقداس في الهيكل في القدس يجب اصلاحه أو ما إذا كانت أجسام القديسين التي بُعثت قد ماتت ثانية. ولكن (ينبغي) أن نسأل ما إذا كنا قادرين على أن نشعر مع أصحاب الأناجيل والفنانين المصورين والأطفال والجنود الرومانيين أن حادثة عند موضع صلب المسيح هي حادثة تهم الكون، بما في ذلك الطبيعة وكل التاريخ. وبهذا السؤال في عقلنا دعونا نلق نظرة على العلامات التي أوردها صاحب الإنجيل.

لقد حجبت الشمس وجهها بسبب عمق الشر والخجل اللذين رأتهما تحت (الصليب). لكن الشمس حجبت أيضاً وجهها لأن قوتها على العالم قد كفت مرة وإلى الأبد في هذه الساعات من ظلمتها. إن الإله المشرق الرائع والمحترق لكل شئ يعيش على الأرض، الشمس التي جرى الثناء عليها وحدثت الخشية فيها والتي عبدها العديدون من البشر إبان آلاف وآلاف السنين قد شُلحت قوتها الإلهية عندما تمسك إنسان (واحد) وهو في الكرب الأقصى بوحدته بما هو أكبر من الشمس.

---

(٤٥) يوم الجمعة السابق على عيد الفصح، وهو يوم مقدس عند الكنيسة المسيحية وهو يوم تتم فيه الذكرى لصلب المسيح (المترجم).

ومنذ تلك الساعات من الظلام كان من الجلي أنها ليست الشمس بل النفس التي تعاني وتناضل والتي لا يمكن أن تكسرها كل قوى الكون هي صورة (الأعلى)، وأن الشمس يمكن الثناء عليها وحسب طريقة القديس فرنسيس الذي أسماها أختنا [٤٦] لا إلهنا.

"إن حجاب الهيكل قد انشق اثنين". لقد شقّ الهيكل حجابه كما فعل النائحون لأنه (هو) الذي ينتمي إليه الهيكل أكثر مما ينتمي لأي إنسان آخر قد قُذف به في الخارج وأباده خدّام الهيكل. لكن الهيكل - ومعه كل المعابد على الأرض - تتشكّى من مصيره الخاص. والحجاب الذي يجعل الهيكل مكاناً مقدساً منفصلاً عن الأماكن الأخرى فقد قوته التي تفصل. و(هو) ذاك الذي طُرد على أنه يجدّف في حق الهيكل قد شقّ الحجاب وفتح الهيكل لكل إنسان، في كل لحظة. و(هذا) الحجاب لا يمكن أن يُرتّق ثانية، رغم وجود قسس وكهنة وأتقياء حاولوا رتقه. إنهم (لن) ينجحوا لأنه (هو)، ذلك الذي كل مكان بالنسبة له هو مكان مقدس، موضع يكون (الله) فيه حاضراً، قد وُضع على (الصليب) باسم المكان المقدس. وعندما انشق حجاب الهيكل نصفين فإن (الله) يقضي ويفرض الدين وينبذ المعابد. وبعد هذه اللحظة فإن المعابد والكنائس لا يمكن أن تعني إلا أنها أماكن تركيز على القداسة التي هي أساس ومعنى كل مكان. والأرض - مثل الهيكل - قد قُضي وفُرض عليها عند موضع الصلب. إن الأرض وهي ترتعد وتتزعزع شاركت في كرب الإنسان الذي على (الصليب) وفي يأس كل أولئك الذين قد شاهدوا فيه (هو) بداية دهر جديد. وبالرعدة والزعزعة برهنت الأرض على أنها الأرض الأم التي نستطيع أن نبني عليها بسلام بيوتنا ومدننا، نبني ثقافاتنا وأنظمتنا الدينية. بالرعدة والزعزعة أشارت الأرض إلى أساس جديد عليه تستقر الأرض نفسها: الحب المستسلم بذاته الذي عليه كل

(٤٦) لأن كلمة الشمس في اللغة الإنجليزية مذكر فقد أطلق القديس فرنسيس على الشمس اسم: (أخونا) ولكننا غيرناها إلى الأخت لأن الشمس في العربية مؤنثة (المترجم).

القوى والقيم الأرضية تمركز عداوتها والتي لا يمكنها أن تقهرها. ومنذ هذه الساعة وعندها أطلق يسوع صيحة عالية وتنفس نفسه (هو) الأخير والصخور انفلقت، وكفت الأرض على أن تكون الأساس لما نبنيه نحن عليها. وطالما أن الأرض يكون لها أساس أعمق فساعتها فقط يمكن أن تقوم، وطالما أنها مغروسة في الأساس نفسه الذي انغرس فيه (الصليب) فساعتها فقط تستطيع أن تدوم.

والأرض لم تكف فحسب عن أن تكون أساساً صلباً للحياة، فإنها كَّفت أيضاً عن أن تكون كهفاً دائماً للموت. إن البعث أو القيامة ليس شيئاً يضاف إلى أرض (هو) ذلك الذي هو (المسيح)، ولكن البعث أو القيامة متضمن في موته (هو) على نحو ما تشير قصة البعث قبل البعث. لم يعد الكون خاضعاً لقانون الموت من الميلاد. إنه خاضع لناموس أعلى، ناموس الحياة من الموت بموته (هو) ذلك الذي يمثل الحياة الأبدية. لقد انشقت القبور وبُعثت الأجسام عندما إنسان واحد فيه كان (الله) حاضراً بدون حدود أسلم روحه (هو) بين يدي (الآب). ومنذ هذه اللحظة لم يعد الكون ما كان عليه، لقد تلقت الطبيعة معنى آخر، وتبدل التاريخ وأنتم وأنا لم نعد كما كنا ولا يجب أن نظل كما كنا عليه من قبل.

المصطلحات

عربي - إنجليزي

(أ)

الإبداعية	Creativity
الأبدي	Eternal
الأبدية	Eternality
الإحسان	Charity
الإرادة	Will
الأريحية	Benevolence
الاستنارة	Blesedness
الإسلام	Islam
الاستنارة	Buddhism
الاصطباغ الدنيوي	Secularization
الاصلاحيون	Reformers
الاغتراب	Strangement
الأناجيل	Gosples
الانفصال	Separation
الإيمان	Faith

(ب)

الباطل	Vain
البر	Charity
البركة	Blessedness
البركة	Grace
البروتستنتانية	Protestantism
البعث، القيامة	Resurrection
البوذية	Buddhism
البيّنة	Evidence

(ت)

التجديف	Blasphemy
التجلي	Manifestation
تعدد الآلهة	Polytheism
التعليل اللاهوتي لشخص المسيح	Christology
التعميد	Baptism
التفرقة العنصرية	Discrimination
التقوى	Peity
التكريس	Consecration
التكريس	Devotion
التلف	Waste
التناقض الظاهري	Paradox

(ج)

الجمال	Beauty

(ح)

الحب	Love
الحدس	Intuition
الحرية	Freedom
الحق	Truth
الحقيقة	Truth
الحنو	Compassion

(خ)

الختان	Circumcision
الخطاة	Sinners
الخلاص	Salvation
الخلق	Creation
الخلق الجديد	New Creation
الخليقة	Creation
الخيرية	Goodness

(د)

Eon	الدهر
Secular	الدنيوي
Judgment	الدينونة

(ر)

Lord	الرب
Epistle	الرسالة الإنجيلية
Apostle	الرسول
Apostle	الرسولي
Principalities	الرؤساء

(س)

Chaos	السديم
Sacrament	السر المقدس
Ecclesiastes	سفر الجامعة
Lord	السيد

(ش)

Polytheism	الشرك
Rite	الشعيرة
Intercssion	الشفاعة
Sceptics	الشكاك
Deacon	الشماس

(ص)

Evangelist	صاحب الإنجيل
Saducee	الصدوقي
Crucification	الصلب
Cross	الصليب
Imagery	الصور المجازية
Mystic	الصوفي

(ض)

Waste	الضياع

(ط)

Rite	الطقس الديني
Service	الطقس الديني
Liturgical	الطقوسي

(ع)

Christendom	العالم المسيحي
Idolatry	العبادة الوثنية
Nothingess	العدم
Seer	العراف
Sibyl	العرافة
Uncircumcision	العزلة
Reformation	عصر الإصلاح
Psychotherapy	العلاج النفسي
Providence	العناية الإلهية
New Testament	العهد الجديد
Old Testament	العهد القديم
Easter	عيد الفصح

(غ)

Beautitudes	الغبطات
Strangement	الغربة
Forgiveness	الغفران
Gentiles	غير اليهود

(ف)

Pharisee	الفريسي
Chaos	الفوضى

(ق)

Centution قائد المائة الروماني
Fate القدر
Holyof Holies قدس الأقداس
Saint القديس
Sacrament القربان المقدس
Minster القسيس
Anxiety القلق
Proposition القضية
Resurrection القيامة

(ك)

Minister الكاهن
Scriptures الكتب المقدسة

(ل)

Grace اللطف الإلهي

(م)

Missionary المبشّر
Ecstaics المجاذيب
Beautitudes (طوبى) مجموعة
Savoir المخلص
Healing المداواة
Christ المسيح
Messiah المسيح
Christianity المسيحية
Will المشيئة
Anointed المصطفى
Destiny المصير
Synagogue المعبد اليهودي
Oracle المعجزة
Infallible المعصوم
Reasonableness المعقولية
Baptist المعمداني
Criterion المعيار
Pardox المفارقة
Holy المقدس
Anointed الممسوح
Possessed الممسوس
Golgotha موضع صلب المسيح

(ن)

Nazareth الناصري
Prophetism النبوة
Repentance الندم
Sceptism النزعة الشكية
Dogmatism النزعة القطعية
Realism النزعة الواقعية
Blessedness النعمة
Grace النعمة

(هـ)

Hinduism الهندوسية

(و)

New Reality الواقع الجديد
Pagan الوثني
Idolatry الوثنية
Ecstasy الوجد
New Being الوجود الجديد
Old Being الوجود القديم
Medium الوسيط
Commandment الوصية

(ي)

Despair اليأس
Intercede يشفع
Yahweh يَهوه
Good Friday يوم الجمعة الحزينة
Doom يوم الحساب
Doom يوم الدينونة

Prophetism النبوة
Proposition القضية
Pnovidence العناية الإلهية
Psychotherapy العلاج النفسي

(R)

Realism النزعة الواقعية
Reasonableness المعقولية
Reformation عصر الإصلاح
Reformers الإصلاحيون
Repentance الندم
البعث، القيامة
Resurrection
Rite الطقس الديني - الشعيرة

(S)

السر المقدس - القربان المقدس
Sacrament
Saducee الصّدوقي
Saint القديس
Salvation الخلاص
Savoir المخلص
Scepticism النزعة الشكية
Sceptics الشكاك
Scriptures الكتب المقدسة
Secular الدنيوي
الاصطباغ الدنيوي
Secularization
Seer العراف
Separation الانفصال
Service الطقس الديني
Sibyl العرافة
Sinners الخطاه
Strangement الاغتراب - الغربة

Synagogue المعبد اليهودي

(T)

Truth الحق - الحقيقة

(U)

Uncircumcison العزلة

(V)

Vain الباطل

(W)

Waste التلف - الضياع
Will المشيئة - الإرادة

(G)

Gentiles غير اليهود
Golgatha موضع صلب المسيح
Good Friday يوم الجمعة الحزينة
Goodness الخيرية
Gosples الأناجيل
Grace النعمة- البركة- اللطف الإلهي

(H)

Healing المداواة
Hinduism الهندوسية
Holy المقدس
Holy Of Holies قدس الأقداس

(I)

Idolatry الوثنية - العبادة الوثنية
Imagery الصور المجازية
Infallible المعصوم
Intercede يشفع
Intercession الشفاعة
Intuition الحدس
Islam الإسلام

(J)

Jahweh يهوه
Judgment الدينونة

(L)

Liturgical الطقوسي
Lord الرب - السيد
Love الحب

(M)

Manifestation التجلي
Medium الوسيط
Messiah المسيح
Minister الكاهن - القسيس
Missionary المبشر
Mystic الصوفي

(N)

Nazareth الناصري
New Being الوجود الجديد
New Creation الخلق الجديد
New Reality الواقع الجديد
New Testament العهد الجديد
Nothingness العدم

(O)

Old Being الوجود القديم
Old Testament العهد القديم
Oracle المعجزة

(P)

Paradox المفارقة - التناقض الظاهري
Pagan الوثني
Peity التقوى
Pharisee الفريسي
Polytheism الشرك - تعدد الآلهة
Possessed الممسوس
Protestantism البروتستنتانية
Principalities الرؤساء

(A)

المسوح - المصطفى
Anointed

Anxiety القلق

Apostle الرسول - الرسولي

(B)

Baptism التعميد

Baptist المعمداني

Beautitudes
الغبطات - مجموعة (طوبى)

Beauty الجمال

Benevolence الأريحية

Blasphemy تجديف

Blessedness البركة - النعمة

Buddhism البوذية - الاستنارة

(C)

Centurion قائد المائة الروماني

Chaos السديم - الفوضى

الأريحية - البر - الإحسان
Charity

Christ المسيح

Christendom العالم المسيحي

Christianity المسيحية

Christology
التحليل اللاهوتي لشخص المسيح

Circumcision الختان

Commandment العرضية

Compassion الحنو

Consecration التكريس

Creation الخلق - الخليقة

Creativity الإبداعية

Criterion المعيار

Cross الصليب

Crucification الصلب

(D)

Deacon الشماس

Despair اليأس

Destiny المصير

Devotion التكريس

التفرقة العنصرية
Discrimination

Dogmatism النزعة القطعية

يوم الحساب - يوم الدينونة
Doom

(E)

Easter عيد الفصح

Ecclesiastes سفر الجامعة

Ecstasy الوجد

Ecstatics المجاذيب

Eon الدهر

Epistle الرسالة الإنجيلية

Eternal الأبدي

Eternity الأبدية

Evangelist صاحب الإنجيل

Evidence البيّنة

(F)

Faith الإيمان

Fate القدر

Forgiveness الغفران

Freedom الحرية

المصطلحات

إنجليزي- عربي

بول تيليش

فيلسوف ألماني المولد أمريكي المواطنة

- ولد في إقليم بروسيا
- درس في جامعات برلين وتوبنجن وهال
- حصل على الدكتوراه في تطوير فلسفة شلنج عام ١٩١١ من جامعة برسلاف
- رسم قسيساً عام ١٩١٢
- طرده النازيون من عمله وهاجر عام ١٩٣٣إلى الولايات المتحدة الأمريكية
- قام بالتدريس في عدة جامعات أمريكية منها هارفارد وكامبردج وييل ونيوهافن وكاليفورنيا وكولومبيا
- حصل على جائزة السلام ١٩٦٢ من رابطة الناشرين الألمان

هذا الكتاب

يحتوي هذا الكتاب مواعظ ألقيت معظمها في الكليات والجامعات وخاصة في المعهد اللاهوتي المتحد بنيويورك وفي كلية كونكيتكت نيو لندن، كونكيتكت، منذ نشر المجلد الأول لمواعظي "زعزعة الأساسات".

والعنوانان: "زعزعة الأساسات" و"الوجود الجديد" يظهـ أ ـلاقة المشكلات الرئيسية في الكتاب الأول بالمشكلات الوارد الثاني. وإذا جاز لنا القول فإن "الوجود الجديد" هو إجابة التي تطورت في "زعزعة الأساسات".



٤ شارع حجاج عين شمس الشرقية
القاهرة - مصر ت:٤٩١٤٢٧٦٠
Web site:www.elkalema.com